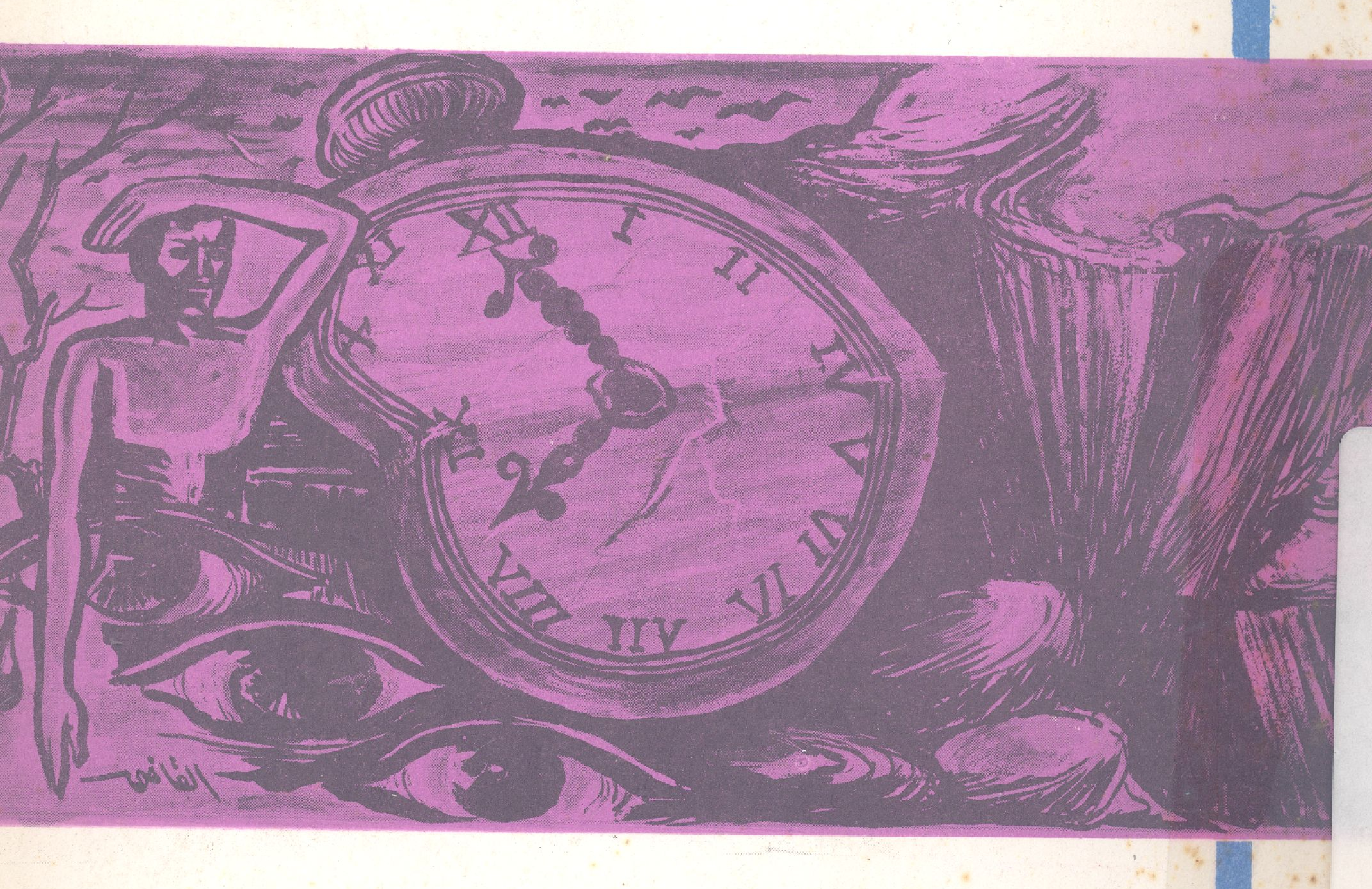
رواية

ليل آخر

د. نعيم عطية



روايــــة

ليـل آخـر

د . نعيـم عطيـة



الى صلاح عبد الصبور

الى يوسف الشارونى

الى ادوار الخراط

الى جميل عطية ابراهيم

الى بهاء طاهر

الى محمد الراوى

« لان ظلال المساء امتلت »

« ... لأن ظلال المساء امتدت »

ارميا - ٦ - ٥

النداء البعيد

لم أعرف ماذا حدث ، لكن سرعان ما أدركت انى أواجه موقفا خطيرا . كل شىء كان يسير على ما يرام منذ وهلة . نقبت . دققت الفحص بقدر ما كان يسمح لى ما بقى من وقت ضيق . لم تكن لدى وسيلة لتحديد اتجاهى بعد أن تعطلت ساعتى . قال لى هاتف : لم لا تجرب الخط الفاصل بين الليل والنهار ؟ — ساورتنى المخاوف أن القى حتفى فى هذا المكان النائى الذى لا أتبين على وجه التحديد موقعه . قررت أن أشعل قداحتى ، فربما أفادت ومضة الضوء .

أين أنا ؟ هذه البقعة التى ألقى بى اليها ، اين هى ؟ أهى فى الشمال ، أم فى الغرب ؟ فى الجنوب الغربى ، أم فى الشمال الشرقى ؟ ولكن فى الشمال من ماذا ، وفى الجنوب الغربى من ماذا ؟ لااستطيع أن احدد إلا بالوصف . فلأقل « عن يمينى كذا وكذا » وهكذا علت مركزا للكون . بداية خاطئة ، اعرف ذلك ، لكنها بداية ، على أى حال ، ولايستغنى المرء عن بداية . خيط يمسك بأوله أو ربما بآخره ، يمضى معه ، ويكتشف أنه ليس مركزا للكون : بل أنه ليس من هذا الكون سوى حصاة صغيرة ملقاة على شاطىء مترام ، لايعرف له نهاية . وهل يعرف له بداية ؟

أغلب الظن أننى على عمق كبير تحت سطح الأرض . وربما أطل على بحيرة . بالأمس دخلت إلى دهاليز رطبة . توغلت رابطا حبلا رفيعا عند المدخل . انتهى الحبل ولم أصل إلى قرار ، فعدت إلى مكانى هذا الذى ربما لم يكن هو مكانى بالأمس . رأيت على التراب بصمات وآثار أقدام ، حديثة نسبيا . هذا فضلا عن شمعة منطفئة يعود تاريخ وجودها فى ذلك المكان إلى عشرات السنين آخرون جاءوا إلى هنا من قبل ؟ ربما بدافع الفضول أو المعرفة

أو للرغبة فى مجاوز الحدود ، أو ربما لتحدى المجهول ، أو للهب والسرقة ، فان عناقيد النجوم مدلاة ويحلو للبعض من أمثالى أن يقطفها ، أو ربما شب أحد على أطراف أصابعه ومط جسده المنهك ، كى يوسع أفق وجوده الخامل ، أو لغير ذلك من الأسباب والدوافع . . ولكن ليس هذا هو المهم . الأهم أين ذهبوا ؟ اين بقاياهم إذا كانوا قد هلكوا ؟ هل مروا إلى الجانب الآخر ، أم أنهم لم يرحلوا قط ، بل أنا الذى تعديت الحدود ؟ أين ذهبوا . . أين ؟ أو لعل أحدا لم يأت إلى هنا ، ولا أنا . ربما كان كل شيء كابوسا مزعجا ، حلما ووهما . وصارت الحدود بين هنا وهناك غير محدودة . هل من أحد يلقى إلى حبلا ، أو طوق نجاة ، أو يرصفنى إلى دريا ؟ هل أنا شاهد زور ليس إلا ؟

عيون كثيرة من حولى ، تحاصرنى ، عيون صغيرة ضيقة وعيون واسعة كبيرة . عدسات ، شبكات حساسة لأدنى حركة ، تسلط على أنظارها ، وتلتقط أوهى بادرة تصدر عنى . عيون تمتصنى . تحفر بداخلى . تثقب صدرى وجبينى . تنفذ إلى تجاويفى لأسمع أنفاسها ، كأنها موتى . تشمنى بنظراتها . تتحسسنى ، تغرس فى إبرها : ملايين العيون سمرت حولى ، ويلى لو زحفت

نحوى ، أو جذبتنى نحوها ، أو قذفتنى إلى شراكها نسمة ، أو دحرجتنى إلى خراطيمها رجة . فلأتشبث بنفسى ولأرسخ قلمى .

هل هذا الصمت المطبق ، الرحيب ، خدر لايقاوم ، يفقدنى المقاومة ؟ حقيقة مروعة . هل هذا الصمت المحكم قد نسق فى شكل وردة ؟ أهو نقطة سائل لايرى ، ولايلمس ، لاطعم له ولا لون ؟ من أى قنينة انسكب هذا السائل ؟ أو ربما انى ترديت فى بطن القنينة ذاتها . أفى مصيدة كبيرة قاتلة أنا ؟ مصيدة صماء قاسية ؟ القبضة الخشنة غير المرئية هل سوف تزداد انقباضا ، فإذا ما انفتحت لايبقى منى حتى هذا الصوت الذى لامعنى له ، ولا أثر ؟ كيف اقتنصتنى هذه الأركيدة المفترسة ؟ كيف ترديت بين أوراقها ، واسندت رأسى إلى وسادتها المبطنة بغدد مثل الأبر ؟ فى محلول غير مرئى اسبح ؟ حقيقة مروعة ذبابة أنا وقعت بين أوراق ندية ؟

فم واسع ؟ معدة تمددت حتى أصبحت شفافة ، وأنا بالداخل؟ عوالم تتغذى على عوالم كى تحيا ، عوالم مظلمة ، باردة سحيقة خاوية صامتة . الصمت خادع ؟ مواء نعيق،انين ، قرقعة عظام عظام وحطب يابس ، أنسجة تنفجر ؟ أصوات تصم الآذان ، ولاأسمعها ؟ عالم موحش ، هامد ، شفاف ، وهاج . ترى ، هل أنا علبة صفيح فارغة فى جوف نعامة ؟

على أن اهيء الأرض لينبت أمل . عدت أرصد . أدقق النظر فيما حولى ، واحتفظ برباطة جأشى . اقفلت أبوابى ، ومضيت أطل من نوافذى . شىء محير — أين أنا ؟ من أين جئت ؟ أفى رحلة العودة أنا ؟ أم أن طريقى باتجاه واحد ، لارجعة فيه ولا ارتداد ؟ وماذا يقولون عنى هناك ؟ هل كان لى حقا زوجة وأولاد ومعارف وجيران وأصدقاء ؟ من أنا ؟ هل بإمكانى أن أرى جانبا صغيرا ، من الوجه غير المرئى للحقيقة الحيرى ؟

ماعدت أتلقى الأوامر من أحد . أصبحت سيد نفسى . ماذا افعل بهذه الحرية ؟ أنام ؟ أسبح ؟ خيل إلى أننى عثرت على إجابات لعديد من الأسئلة التى كانت تدور فى الرؤوس لكن الأمور زادت تعقيدا ، والاسئلة لم تفض فى الواقع إلا إلى إجابات مبهمة ، إجابات متآكلة ، هى فى جوهرها أسئلة تنهال على عقلى ، تكبله وتضيق الخناق عليه .

من أنا ؟ من أين جئت ؟ بصفة نهائية محددة أريد أن أعرف . ضوء باهر ، يعمينى . أنا فى ظلام . أين أنا ؟ ضوء باهر يغرقنى . لا ليس ضوءا . أين أذهب ؟ ضوء باهر . أنا فى ظلام . ظلام باهر .

خاطر مر ببالى . هل يمكن أن يكونوا هنا أو هناك مختفين . أقصد فى مكان ما ، فى ركن ما . لانراهم ؛ لكنهم يروننا . . يحصون علينا الأنفاس ، ويرصدون الخطى ؟ هل هم من مكامنهم يتسمعون ، وأنا أدلى بالاعترافات ؟ هل هم أصدقاء ؟ ولكن لماذا إذن لانراهم ؟ لماذا لايظهرون ؟ يجرحوننا بأبصارهم الخفية ، يهتكون أسرارنا ، يعروننا ، ونحن لانطول منهم شيئا . لماذا لا يوجهون إلى دعوة ؟ لماذا ؟ ربما هذه دعوتهم . ربما هم الذين أتوا بي إلى هنا . جلبونى إلى هذه البؤرة بقدراتهم المريبة ، ولاينوون أن يفكوا أسارى . ربما كانوا يحضرون لجنازتى . أو ربما يمارسون على بالصمت والاهمال أقسى العذاب . أصرخ بأعلى صوتى.. أنا هنا ، وأنتم ؟ اين انتم ؟ صوتى يختنق بالعبرات : ما كنت أريد أن أعترف ، لكننى ربما أظلم هؤلاء الناس : أقصد هذه المخلوقات من حولى ، بينما هى ترتدى أقنعة الاختفاء للدفاع عن نفسها ضد وافد جديد ، ربما أصبح فيما بعد ، وفودا عديدة . فانعقد بيننا مصالحة . كرم الضيافة لا تعرفونه ؟ انني فى الحق اتدهور .فإذا لمستم منى تهجما أو ضراوة . فلن يكون الذنب ذنبى بل ذنبكم . ولكن أين انتم ؟ بالله اين انتم ؟ لست مخيرا . صدقونى : أقبل أن أفعل أى شىء من أجل خطوة أو خطوتين فى طريق العودة :

يجب أن أنقذ ما يمكن إنقاذه أيها الصامتون غير المكترثين بما

لحنتى ، أوقفوا التخريب الذى تحدثونه فى بصمتكم . . أعرف ، تريدون ألا أذوق طعم النوم . تريدون أن افقد صوابى ، فتتناثر اشلائى فى هذا الكون الرحيب : . واصبح منكم ، لا ، سأقاوم . سأقاوم ، حتى أراكم ، وابصركم . سأقاومكم .

ربما أكون قد نسيت ، أو أقصيت ، أو ربما أكون قد أهملت أو ربما كانوا يبحثون عنى ، ولايجدوننى ، و ربما كنت أصيح فلايسمعون صوتى ، أو ربما كانوا ينادوننى فلا أسمعهم . ربما كان صوتهم خافتا أكثر من اللازم ، أو كان برغم كل قوته يتبدد بعد بضعة أميال ، أو ربما كان التيار منقطعا ، أو كان ثمة ما يمتص صوتى أو صوتهم ، ربما عمدا ، أو ربما كان الصوت متكسرا يتحول إلى أصداء تشوه بعضها بعضا . أظل هنا ، إلى متى ؟ معزولا ، بعيدا ، أو ربما قريبا أكثر مما أتوقع أو يتوقعون ، ربما كنت بداخلهم . ايتلعوننى ؟ ربما ، فالاقدار تسارع إلى مساعدة من يسعون إلى خرابهم .

هاجس خطر ببالى توا . ترى ، ذلك الانفجار ، أكان من تدبيرهم ؟ أهم الذين مهدوا له ، واجروه ؟ هل يتابعوننى الآن ،

مثلما تضع حشرة ضئيلة تحت المجهر وتمعن النظر فى دقائقها دون أن تدرى هى من هذا الأمر شيئا ؟ أهم الذين زجوا بى فى هذه المحنة ، حتى يتحققوا من سلامة بعض النظريات فى أوراقهم ؟ مجرد هاجس .

لابد أنهم سيهرعون لاغاثتى . لابد أنهم سيجدون وسيلة . كل تلك الاستعدادات والتجهيزات ، لابد أن تكون ذات جدوى فى مثل هذه الحالات ، والافما معناها ؟ لا بد أنه ستجرى اليوم ، أو غدا على الاكثر مناقشة جدية لاحتمال معاودة الاتصال بى .

اليس ثمة وسيلة؟ حبل طويل مثلا؟ جسر من المطاط يبسط الى هنا؟ أنبوبة طويلة ماصة؟ مغناطيس جذاب ؟ خطاف؟ شبكة ؟ ذراع عملاقة؟ موجات غير مرئية ؟ سلم نجاة؟ ريشة خفيفة تقذف بها الريح عاليا حتى عندى، فإذا مكنت الريح هويت معها، الى الأرض برفق ، ونجوت ؟ ألا يرسلون الى ضفادعهم؟ أليس ثمة حتى نظرية مختلف عليها يدفعون بها الى الاختبار للتحقق من سلامتها؟

كل يوم يمر لا يفلح فى أن يجعلنى أنسى . كيف نجوت دون الآخرين جميعا؟ كنت معهم بعد منتصف الليل، وفجأة نجوت . لم أدر شيئا عندما جاءت الكارثة. أكانت اعصارا اجتاح المكان، واذا بالرياح تحملنى كحصاة بعيدا، وتلقى بى فوق شجرة ذابلة، أو ربما شبح شجرة، تعلقت بها حتى الصباح ، ثم نزلت ،لأجد جثث الآخرين طافية فى المكان، وسط مئات الجثث الأخرى ، ويبدو أنها كانت تطفو هنا من قبل؟ هل كانت الكارثة اصطداما ونجاة من الموت؟ هل كان ثمة مفرق طريق غابت على رؤيته ؟ هل كان ثمة منزلق خطر، ترديت فيه الى الهاوية ؟

سمعت دبيب قدمى ، على هذه الأرض الصخرية، أو هكذا تبدو لى رغم أنها قد لا تكون صخرية ، لكننا لا نقوى على التخلص من آفة القياس وتشبيه الأشياء الجديدة بالقديمة وتقريبها منها ، فكل جسم صلب نسير عليه هو صخر ، وان لم يكن صخرا .

ها أنا أصعد : أخرج باحثا عن مخرج :

أمس عجزت عن انتزاع أنبوبة الحفر بسبب صلابة التربة في تلك المنطقة . بينما كان الليل من حولي رائعا . في سكونه راح يرقبني ، مشفقا .وعندما سرت عائدا التفت خلفي . فجاة رأيت الليل ينظر الى مواقع أقدامي دهشا . ولما أدرك أنني فاجأته يرقبني . أسرع يختفي وراء تلال الألمونيوم . تعتقدون أن الليل كتلة هشة باردة ؟ كلا ، صدقوني أنني أشعر بفرح طاغ ، فقد عرفت الليل على حقيقته . ورأيته بعيني التين سيأكلها الدود . كم وددت أن ألمسه ، أن آخذه بين ذراعي ، وأسند رأسي إلى كتفه البنفسجي ، وابكي . اشكو له عزلتي وإهمالي . فلم يبق الا طيفه القطيفي الأسود لي في محنتي .

كنت فيما مضى أتوق الى مطلع النهار ، يصعد في مركبته اللهبية ، ينثر زهوره الندية عند الأفق وعلى السهول ، ثم على أسطح المنازل . وأذكر البحر في مدينتي الملحية ، كان يغني أنشودة جماعية هادرة عندما ترسل الشمس اشعتها تستحم في حضن أمواجه ، ثم تلمع مثل مرآة فضية على رمال الشاطئ . أما الآن فأنا هنا في بحر أسود مظلم . لا تأتي اليه الشمس . ولا ترسل أولادها يغتسلون بين أمواجه . بل ان الشمس قد خدعت فأغرقت بين قبضتي هذا الوحش الذي لايرحم وغاصت في الأعماق . ربما أراد ذلك الوحش أن يحصل على كل ضوء الشمس مرة واحدة ، فاذا به بعد أن خنقها

بين أصابعه الفولاذية يغرق فى ظلمة ابدية ، وقد تحول القرص الساخن جثة تفحمت ورست هناك فى مكان ما من القاع ، الفسيح ، الفسيح ، البهيم .

ما هذا ؟ صوت سمعته . دبة الى جوارى . حجر يسقط ؟ كيف ؟ ذات الاسئلة على الدوام . حجر خشن . إنتبه للأشياء الصغيرة ، وأعرها كل الاهتمام . جسم غير مصقول . فالأتحسسه . فالأقربه من عينى ، وأدقق النظر . فالأتشممه . فالأكسره بأصابعى آه ، ها هو دليل آخر . أكاد أسمعهم . أين هم ؟ الجو من حولى مشحون بهم ، لكنهم لا يظهرون . لعبة أعصاب ؟ وددت ان يواجهونى ، كشرفاء ، بدلا من هذه المخاتلات فى الخفاء . هل عرفوا سرى ، ونقطة ضعفى ؟ كلا ، كلا ، لم يحدث شىء مما قلت . لم يحدث شىءعلى الاطلاق ، أضغاث أحلام ، حياة لم أعشها قط . تماسك . تماسك . قف فى وجه كل الصعاب . لملم شتات نفسك ، وراقب فقط . راقب فقط .

انتبه . هاهى الحقيقة . لن تكون العدم الذى تستوعبه حواسك .

ستكون منا . لا تسأل من نحن . يكفي أنك لن تكون القلق المكتوم الذي يصرخ في طواحين المنفى . هاهو صوتك يخبو ، ليعلو معنا صمتا . انتبه . ها هي المصالحة التي دعوتنا اليها . الظلام يزحف . قل وداعاً للشموس التي تعمي الأبصار . ودعها كشجاع أصيل ؛ فلن تكون لألأئها سوى أحلام منسية . أنك الآن تموت لتولد من جديد . لن يمتص التراب رفاتك . لن تنهش ديدان وقوارض جسدك . ستكون بين أيدينا . ستكون لنا ومنا . الآن ، من أنا لاتسأل . لن يكون ثمة ضوء ، ولاظلام سوف يكون . ستصبح أنت ذاتك ضوءا . أيها الريان الذي انهكك الطموح ، انتبه . هاهي اللحظة التي تنتظرها قد ازفت . لم يعد النور الفريد يحيط بك ، بل صار فيك يتوغل . أصبحت قنديلا موقداً . أصبحت نجما وشمسا . ستكون أرجوحة . ستدور معنا. تعال إذن أيها الإنسان الحائر. إنس أنك كنت ذلك المخلوق العاجز الممزق . يحملك الطوفان إلينا ، ومع موجة ها أنت تذوب . يذوب وجودك هذا الآني . وجودك العرضي يتبدد، وتتفتح أنت مثل وردة سلومية . انظر . ملكة الفضاء تتحدث اليك . انظر . تحولت الى اوراق مشعة في اعماق محيط مترام مظلم . ها هو الانتصار الذي تقت ان تحققه الى الأبد تحقق .

بوابة الألم

كل شيء يبدأ ، كما انتهى ، بهوة يجب اجتيازها .

على حاشيتى أقضى الليل ، أحملق فى السقف المظلم . اتابع عليه إنعكاسات الأضواء الهاربة . أحملق فى صفحات كتاب ، لاأفهم من كلماته شيئا . أعتصر ذهنى ، أين قرأتها ؟ إلى أى قاموس أستطيع أن ألجأ ؟ المحللات من حولى عديدة وكثيبة . كلها اتهمتنى كما اتهمتها ، لكن فى لحظة الحسم لايأتى لنصرتى ، ولايسعفنى

شيء منها . تناقش نفسك ، وتناقش الآخرين . تقلب الأمر على وجوهه ، لكنك لا تتعدى ذلك . يتملكك التعب قبل أن تبدأ ، ويركبك أحساس بأنك قد أتيت العمل الذى تقبل على إتيانه ، فينتهى حماسك له . تعجز عن الخروج من مرحلة الشروع والتأهب. وعجزك هذا يعوقك عن أن تحس لوجودك طعما . أنك مرهق . وهذا الجسد الدنس ، وددت لو تطايرت فى الفضاء ذراته ، لو تبخر واستحال هواء لايلمس ولا يرى ، لو ينحل ويذوب إلى غير رجعة . أنك بين شقاء وشقاء تتقلب .

ثم جاءنى صوتها وقال : كان مكتوبا عليك التراجع دوما . فى كل مرة لم تكن تتراجع كانت راسك تتحطم . لكنك هنا حيث انسحبت وآثرت الانزواء لن تتراجع ،ولن تتزحزح . ستتشبث بمحنتك وحتى إذا تراجعت ،فأين ستذهب؟ خطوة إلى الخلف ، مثل خطوة إلى الأمام ، لاتغير من عزلتك شيئا . ستسمع صوت الحقيقة ، وعليك أن تصمت ،وأن تقصى الثرثرات عن سمعك.عليك أن تسكت كل ماحولك حتى يتدفق بداخلك ، كفيض ربانى ، الصوت الحق ، ويتخذك معبرا . صم أذنيك ، أغمض عينيك ، وفى الصمت إبدأ . لاتصدق حتى ماتراه ، ولا ماتسمعه أذناك . من أنا ؟ من أنا الذى أتحدث اليك ؟ يكفى أنك تسمعنى . ألا تسمعنى ؟ أم أنك كشأنك دائما ، لاتصدق أنك تسمعنى . أنت ترانى ، ولاتصدق أنك ترى . تسمعنى ، ولاتصدق أنك تسمع ، تقول « صدى » تقول « سراب »

تقول أى شىء ، ألا الحقيقة فهذه لاتقولها . بعينين مفتوحين تنظر إلى ، وإنى ذات النظرة المفعمة بالدهشة أبادلك، وأضيف اليها رثاء .

كانوا يطلبون منى فى كل الأحوال أن أتراجع . يتوسلون إلى . يركعون عند قدمى ، ويقبلون يدى . كنت أصر أول الأمر : كانت الظروف تدعونى إلى عدم التراجع ، بل وإلى الإيغال فى التقدم ، وهو ما كان المتوساون يصفونه تطرفا ، ويلتمسون منى ألا أركب الشطط ، وأن أدع العناد جانبا ، فهو لايوصل إلى فائدة . من جربوه قبلى – على حد قولهم – عضوا بنان الندم . كنت أصم أذنى عن كل نصيحة وعن كل رجاء، لكننى أزاء بعض الدموع من شخص حبيب ، ضحى من أجلى فى سالف الايام ، كنت أتراجع ، فما كنت أريد أن أخيب له رجاء . كانت الدموع التى تسيل على خديه هى الهراوة التى تهوى دائما على رأسى فتهشمها : ويذوب عنادى وأتراجع ، حتى أختفى عن العيان . وها أنا الآن غائب عن كل الانظار ، ورقة شجر ، أقتلعت من غصنها . نفخت فيها الرياح . دفعت بها بعيدا ، بعيدا ، بعيدا .

« لم تكن تفعل الا مالا تريد أن تفعله »

منذ أن أستيقظ فى صباحى إلى حين مسائى كنت أفعل ما كنت أمقت أن أفعله . كنت أفعل ما كان الآخرون يقولون لى أنك يجب أن تفعله . كل يوم ، من الصباح إلى المساء ، كنت أطحن عظامى وأعتصر دمى . وأبيع هذا وذاك فى سوق العبيد . مهما صدرت قوانين وأبرمت مواثيق بالغـــاء العبودية ، فالعبودية باقية . أنها من طبيعة حياتنا ذاتها . نبيع ساعات حياتنا ، أيامنا ولياليها ، بأبخس الأثمان ، ولايبقى لنا سوى أحساس ممض بأننا نلهث على الدوام دون أن ندرك شيئا . فقط . لو كان لهاثنا لما يستحق منا العرق والدموع ، لهانت بلوانا ، ولكن سعينا كل يوم إلى ماهو تافه وحقير ، خسيس ومقزز . أننا إلى حتفنا نسعى . كل يوم نحفر قبورنا . باظافرنا ، نحفر ، نحفر . كنت على الدوام أفعل مايطلبه منى الآخرون . أما الآن فى محنتى فإنى أعتمد على إرادتى وحدها . ليس ثمة من يقول لى ماذا أفعل . ما يجب أن أفعله سأفعله أنا باختيارى وعزمى . بدأت أحب محنتى . هى لصيقة بى . تعانقنى وأعانقها . أعشقها مثلما يعشق المسمار ضربات المطرقة . هل تعتقدون أن المحنة فرضت على ؟ لاشىء مفروض . أنا بنفسى اخترتها .

مازالت النافورة تقذف الماء فى الخرائب .

« أننى أصفع . أضرب . أركل بالأقدام . وألقى إلى الأرض ، ويداس على جسدى ويمرغ به فى التراب . أنهض مهلما ، ولا البث أن أتلقى اللكمات فى صدرى ، فى وجهى ، فى بطنى . تلوى ذراعى ، وأدفع إلى الأرض من جديد . أسقط ، ويرتطم عظمى ويرتج . أنهض ببطء ، وأدور فى الجنبات من قسوة الضربات أعرج لكننى لاأستنفد ، ولاأنمحى . أنا حاضر ، دائما بينهم ، فاذا ماحاولوا أبادتى ، سيجدون أننى لست أنا الذى أباد. لاشىء ينفع فى إزالتى .قد يزولون هم ، أما أنا فزاحف إلى حيث أتلقى الصفعات والركلات. وإذا حدث ، وقدم لى أحدهم – وهذا نادر الحدوث – كوبا من الماء فأننى على الرغم من شدة عطشى ، أرفض عطفهم ، وأدفع بالكوب إلى الأرض فينكسر ، ويراق ماؤهم دون أن تتدنس بقطراتهم شفتاى ، فيعاودون إلى الأبد ضربى وركلى واهانتى .

فقدت بعنادى ثقة الكثيرين . إلى المقاهى كنت أذهب . أجلس ساعات طوال ، شاردا ، أتسمع مايقوله جيرانى على الموائد القريبة ، علنى التقط كلمة ترد إلى الثقة أو تنير لى الطريق ، أو تنجح فى أن تثنينى عن عزمى . كيف أجد توازنى ؟ كيف ؟ عزلة ، عزلة عزلة . إحسان من أحد لا أقبل .

« عالم كئيب يجب أن تهجره ، أن توليه ظهرك ، وتعرض عنه »

كل شىء يأتينى على غير ما أتوقع . أتلقى الرفض وقت أن أفتح ذراعى للقبول . ويجيئنى القبول مبطئا ، وقد أستسلمت لتلقى الرفض . كلا ، كلا ، فات الأوان . ماعدت أريد قبولا ، ولا رفضا ماعادت عبارات الاستحسان تهزنى ، ولاتثيرنى عبارات الذم النابية .

ماعدت أتلقى من أحد إجابة . أطرق بوابات الرحيل كلها . من كلاب الطريق الضالة ، من طيور السماء ، من أشباح الخرائب ، أطلب المشورة .

« كنت دائما غير قادر على التلاقى »

كنت أتفتح على الدوام متاخرا . عندما يشتد عودى ، وتخضر أوراقى ، ويونع زهرى ، أجد رفاقى فى الحديقة قد قطعوا الشوط

قبلي ، واختفت في التربة بذورهم ، بينما أنا أرفع عاليا رأسي ، أجيل بصري حولي ، فأجد الأرض قد هيأت للنبت ، وأنا مازلت للقطاف أمضي . إذا ماشرقت غربوا ، وإذا ماغربت شرقوا . كانوا على الدوام يولونني ظهورهم ، فإذا ماحدث ووصلت أسماعهم صيحة أو نداء مني ، كانوا يلتفتون إلى من آخر الممر ، وعيونهم تقول «كيف نلتقي ، ونحن في آخر المشوار ، وأنت لازلت في أوله ، ولا رجعة في الطريق ولانكوص ؟ » أما اذا كنت أنا في آخر الطريق ، ورأيتهم يظهرون في أوله ، فكيف لي بدوري أن أعود أدراجي ، والركب إلى الامام على الدوام يولي ؟

كنت دائما في عزلتي ، أرى الناس عن بعد ، وعن كثب أيضا ، أشباحا ، يتحدثون بلا صوت ، يتشكلون بلا مضمون ، يتصرفون بلامعنى . وأنا بالنسبة لهم أيضا شكل بلا مضمون ، وجود بلا معنى. فما في شعوري هو في شعورهم أيضا. وربما كان هذا نقطة الالتقاء الوحيدة بيننا ، فنحن متماثلون في الـ « لا » دون غيرها . هل أحد يسمعني ؟ هل أحد يبصرني ؟

بالعزلة مت ، وبالعزلة أحيا.أرأيت ؟ مايميت يحيي أيضاً
هذه أغلى أجابة.لم تكن الهوة قبرا . كل شيء يبدأ كما انتهى .
نافورة تذرف دموعها في خرائب .

●●●

٣

حيث الظلمة أكبر

ظهرت المحنة بسرعة خاطفة .

عندما فتحت عيني كان كل شئ حولي قد تغير . المكان مختلف تماما عن كل الأماكن التي عرفتها . لم يكن مكانا على وجه التحديد بل حيزا دون حواجز ، ترى هل فقدت ذاكرتي ؟ هل كنت هنا من قبل ونسيت ؟ أم انني كنت فاقداً للذاكرة وها أنا استردها ؟ لم أكن أستطيع ان أفعل شيئا الا أن أستسلم للمكان الجديد ، لكنني

منذ ذلك الوقت لم أعد أحيا . كنت لا أشعر بكياني موجودا ، بل كثيرا مانظرت الى أطرافى فلا أراها . كان طريق الانسحاب شاقا . من تهن قواه منا ويسقط ، يترك حيث يقع ، ويكون موضع سقطته قبره ومثواه . مضيت أجرجر ساق الممزقة، متكئا بذراعى على كتفى زميلى . ظل يسندنى ،ويحملنى ،ويضمنى الى صدره، بل ويصفعنى حتى لا أستسلم لعجزى وأغوص فى غيبوبتى . كان علينا أن ننسحب بأسرع ما يمكن ، وإلا هلكنا فقد كنا محاصرين من كل جانب . الألم فى ساقى لا يطاق . وددت أن أخلعها ، وألقى بها بعيدا . وعندما بلغ بى الوهن منتهاه ، وانكفأت على وجهى ، مضى زميلى يجرنى ، غير آبه بما يصيبنى من تسلخات . كان صوتى قد انحصر ، فما عاد يسمعه سواى . لوحت له بذراعى أن يتركنى حيث أنا منكفئا على وجهى. دون أن يلتفت الى سار بضع خطوات ، ثم توقف واستدار ينظر الى نظرة ملأها الأسى ، لكننى واجهت نظراته العطوف بحزم . كان يجب أن ينجو واحد منا . اشرت اليه أن ينصرف . استدار ببطء، ومضى بخطوات ثقيلة . مضى دون أن يلتفت وراءه . فى أعماقى كنت استجدى منه نظرة أخيرة ، لكنه مضى يتضاءل ، حتى لم يعد له وجود بالنسبة لى . تركنى فى محنتى أجرعها حتى الثمالة ، وحيدا ، وحيدا .

لا أدرى ماذا حدث بعد ذلك . سمعت أصواتا . ثم تسلل إلى وجهى ضوء باهت . فتحت عينى . أين أنا ؟ بل من أنا ؟ كل شئ

من حولى على ما يرام . لا صوت ، ولا حركة . كل شئ يبدأ بعد صحو من رقاد طويل. أين يبدأ الواقع وأين ينتهى الحلم . ؟

فى هذا العالم الرحيب ، الضئيل فى الآن ذاته ، الهزيل المترامى الأطراف معا ، المصنوع من لحم وعظم ، من دم وإلياف وبشرة ناعمة تارة خشنة تارة أخرى ، يكسوها الشعر أحيانا والمسام الدقيقة دوما — فى هذا العالم الرحيب ، حيث الوهاد والمرتفعات والوديان والكهوف أيضا ، يحتاج الأمر إلى خريطة ، حتى اجوس بين جنباته ، ولا أضيع . لكن ، كيف ترسم هذه الخريطة ؟ كيف تخططها ؟ هنا أماكن غير مأمونة ، عندما تقترب منها تنطلق صرخة ، وربما أصابتك عضة ، مثل شرك ينطبق على ساق فريسة . هناك أماكن لا يمكن الوصول إليها ، وأماكن محظور التوغل فيها ، وأماكن ليس متعذرا الوصول إليها ولا محظورا التوغل فيها ، ولكن أن تجوس خلالها أمر غير مستحب . ومع كل المحظورات والممنوعات والنواهى والمستحيلات تصبح الرقعة المسموح لك بها متناهية الصغر . فتعتمل بأعماقك الرغبة فى التمرد . وفى كسر الإشارات .

جحيم لا يطاق . كرهت جسدى .

لن تكون محاولتي استحواذا على الزمن اللذى يولى ، بل تلاؤم مع المكان وائتلافا به . أجول فى هذا الحيز الذى وجدت فيه باحثا عن علة وجودى . امضى فى المسير بلا توقف كى أجتاز الفوضى ، وعندما تكتمل المسيرة ربما اكتسب كل شئ معنى .

فى هذا الاطار المكانى أجدنى أعزل . لكن عزلتى تزودنى بيقظة تشحذ حواسى . أدقق النظر رغم كل المثبطات المتكالبة الحرباء . ومع الوقت ، سوف يتحقق انتصارى على هذا التيه ، على هذه الفقاعة الهوائية الضخمة التى أدور فيها سجينا . إننى اصد اليأس عنى ، كالغريق الذى يدفع طحالب البحر من حوله .

أدور داخل مشهد لايتغير . غرست فيه إشارات وعلامات . حيز مكانى رائع يسبح فى ضوء ساطع ينبثق من ملايين الحشرات الفسفورية تجعل الرؤى تنساب هاوية من أمامى . الزمن راكد ، رغم انه يولى فكيف البحث عن معنى ، إن لم يكن بالتحرك من حيز مكانى إلى اخر ؟ أهكذا يكون الخروج من المحنة ؟

المكان ليس بالبارد . على أى حال . وليس بالدافئ أيضا . هذا الصمت النائم أزلى . لاوزن لشيء ولا رائحة، ولا نكهة . هل لا معنى لكل شيء أيضا ؟ أرفض أن أعتقد ذلك ، فالمعنى موجود

وكامن ، مهما استعصى على أفهامنا ، واختفى عنا . المعنى موجود وفى هذا عذابنا وعزاؤنا أيضا . ذلك الوحش الرابض غير مكترث بمن يحومون حوله ؛ بمن يصعدون ويسرحون على جثته الجرمة ، مثل قمل على جسد شحاذ عجوز . أيا كان كل شئ وأيا كان اللاشئ ، فلا بد أن لكل شئ ، حتى للعدم ، معنى ، ربما . لم لا ؟ العدم ذاته لا يعنى انعدام المعنى ، والا فلماذا هو عدم ؟ لماذا ؟ كيف ؟ متى ؟ كل هذه الاسئلة تزدحم بها علبة باندورا ؛ يكفى أن تفتح مرة ؛ حتى تتطاير من حولك هذه الأسئلة السامة . وتفقد راحة البال الى الأبد . تطاردك وتلدغك . تطن فى اذنيك يظلم الجو أمامك، وفوقك . أى صندوق هذا؟ أنت هذا الصندوق . تجتهد ألا ينفتح غطاؤك حتى لا تخرج الأفاعى التى تتاوى فى صدرك والعقارب التى تختفى تحت جبينك . زنابير وعناكب سود تحت فروة رأسك . كل أنواع الحشرات والزواحف بداخلك . فى عروقك تسرى النواشر والضباب والسحالى ذات الجلود الخشنة . والقوارض ذوات الأنياب والمخالب .

لو لم تكن لى آذان ؟ لو لم تكن لى عيون ؟ لو لم تكن لى حواس وأعصاب ؟

إنى لا أعرف المواقع بالضبط ، لكن حيثما ارتطمت فى نزولى انبثقت الذكريات وتدفقت . فلأحفر حفرة أعمق .

لابد أن ثمة ممرا ، سردابا خفيا. سأبحث عنه ، ربما كان ماسورة مطمورة ، هنا أو هناك ، فى مكان ما ، منذ آلاف السنين . على عثورها يتوقف خلاصى . لابد أن ذلك الممر كان موجودا قبل محنتى . ترى هذا النفق ، أين هو ؟ وأين أنا ؟ يالها من مفاجأة إن كنت بداخله فعلا . كل هذا الظلام المحيط بى ، وهذه الرطوبة التى تبلل عظامى ، وهذه النتانة ، ألا يوحى كل هذا بالنفق ؟ بالماسورة المرجوة ؟

هل وصلت الى طريق مسدود؟ انى أسأل نفسى أسئلة، وأتسلى بالإجابة عليها . الإجابات تصلح لأغلب الأسئلة ، وأغلب الأسئلة يمكن أن تدعو إليها أغلب الاجابات . لاشئ محدود ، ولاشئ حتمى . الكلمات تأتى بالكلمات ، وفى النهاية ترتفع من حولنا تلال من الكلمات ، مثل أكوام من القمامة . يمكننا وقت أن نشاء إزاحتها من طريقنا . على أنها أحيانا تنهار وتطمرنا تحتها . فاذا ما هبت نسمة تطايرت

الكلمات ، وتراقصت فى الهواء ، متلوية صاعده ، هابطة متدحرجة . فإذا ما اشتدت النسمات دب فيها الهياج مثل خلية نحل من مكانها تسقط ، فتملأ الجو كله ، وتحجب الرؤية من حولنا ، مثل آلاف الدوامات الممتدة الى الأفق ، الصاعدة الى أجواز الفضاء . لعبة الأسئلة والاجابات لعبة كل يوم . سؤال واحد فحسب أتحاشى توجيهه . وإذا خطر فى أعماقى فاننى أكتمه ، اخنقه ، وكأننى لم أسمعه ، وأمضى فى لعبتى بين أكوام الكلمات الملونة ، وركام العبارات التى تسد عين الشمس . اكورها . اقذف فى لعبتى بين اكورها . أقذف بها . أرصها . أفرشها على الأرض ، و أدوسها بقدمى . أصعد على بالاتها . أجلس عليها ، وأصيح « أنا . وليس احد غيرى » وأسر لسماع كلماتى ، فأضيفها إلى غيرها لتشد من أزر ذلك الحاجز الذى يحول دون سماعى السؤال الممض ، الذى له إجابة ولا شك . ولكنها إجابة ليست بالكلمات .

اقمار من ورق . زوارق من ورق . قراطيس من ورق . سيوف من ورق . طراطير من ورق . والورق كلمات . كلمات أشرعها . اطعن بها الهواء . تتكسر . انهزم . شئ مؤلم . الهزيمة ليست بالشئ الذى لا يحدث . إنها مقدرة على أفضل الرجال . ليس المهزوم من يخسر معركة ، بل المهزوم من يتصرف تصرف المهرجين لحظة المحنة .

ظلام فى الخارج . ظلام فى الداخل ، بل وفى الأعماق أيضا ظلام . لكن مالى اتجنى على الظلام ولولاه ماتقنا الى النور؟ لايكفنى أن أكون غارقا فى الظلام حتى أتوق الى النور ، بل يجب أن أكون قد عرفت النور من قبل ، ثم ضاع منى وفى أعماقى انطفأ .

فى الظلمة غارقون ، يتخبطون بين أسوارها المعتمة،ويعتقدون أن ثمة شيئا يجب ان يحدث. لم يعط لهم ان يعرفوا النور ، ولم ينعموا بوضوحة وصراحته . لا يتبينون ما يجب ان يفعلوا . بأفعالهم يزيلون الظلمة ظلمة ، والستائر الداكنة انسدالا . وليس ثمة ما يمنعهم ان أن يعتقدوا انهم يفعلون ماهو الواجب ، لكن مرة أخرى، وبكل حسرة ، من لم يعط من فوق لا يكون له ، بل ويا للمرارة والهول ، من ليس له يؤخذ منه ويطرد خارجاً حيث الظلمة أكبر .

ربما كان هذا ماجعلنى أصعد الى فوق، الى مصدر العطاء، لكن الظلمة لا زالت تحيط بى . ربما لم أصعد بما فيه الكفاية ، أو ربما كانت الظلمة بداخلى ، وعلى أن أطردها ، ولو كلفنى ذلك أن اقتلع عنى أو اجتث أى جزء من كيانى يكون سبب عثرتى .

أريد أن أفتح جميع الأبواب ، ولا شئ يكفينى .

يالى من تعس ، عاجز . أتكلم كى لا أكون وحيدا فى هذا العالم الوضيع . أوهم نفسى بحكايات لا تعقل . صدقونى لست سوى

رجل يطلب من الناس أن يدخلوا إلى عالم بسيط ، ولكن ما أن يأتوا اليه ، وافتح الباب ، يبين أن ذلك العالم هو التعقيد بعينه ، هو المسافة ، امتداد الساعد ، مرمى البصر ، مدى الصوت . وحتى مالا اطوله ، مالا أسمعه ، مالا ألمسه ، هو بالنسبة لى توق لزلى . وعندما افتح نافذتى أريد – ماذا أريد ؟ – المساحة والزمن ماعادا يأسرانى إلا أسرا موقتا ، أما خلاصى فى السفر الأبدى .

هل أفلت من قدرى ؟

انظر كيف يجمع الخادم الشموع بسرعة ؟ ينفخ فيها فيطفئها ، ثم يضعها فى جرابه . اين تذهب الشموع المطفأة ؟ ومن أين تأتى هذه الشموع الموقدة المغروزة فى صحن الرمل أمام صورة القديسة ؟ ونحن ، عندما نطفأ أى جراب يجمعنا ؟ والى أين يأتى بنا ؟ هل لى أن أعرف ؟ هل لى أن أعرف أيتها القديسة العذراء ؟ اننا ننحنى ونكبر للطقوس والترانيم ، ولكن هل نعرف أين يذهب بنا ؟ هل نعرفون انتم ، انتم يا من هناك ، يامن تركعون وتسجدون ؟ من أجل هذه المعرفة خرجت ومن أجل هذه الإجابة اقدمت على مغامرتى

هل حقا تبحث عنى ، كما أبحث عنك ؟ ها أنا أصعد . أصعد إلى أجواز الفضاء ، لألتقى بك ، واتلقى عونك ورحمتك .

٤

الإفلات من الفناء

كنت شبه موقن على الدوام ان الوجود غير محصور فى ادراكنا ولهذا تقت أن أخرج عن حدودى ، عن نفسى ، أن أهرب من ذاتى الضيقة ، أن أفلت من وجودى المحصور إلى ما هو خارج عنها وأبعد منها ، لكننى كنت على الدوام لا أخرج . فما لم يكن مدركا ، ما كان خارجا بالنسبة لى يصبح مع تقدمى إليه واكتسابى له جزءا من ادراكى . وهكذا كان ادراكى يلاحقنى ، بل وكان ينمو ويكبر ، ويصبح مسخا هائلا ، غولا ، عملاقا ، عنقاء ، لا مخرج لى من براثنه ، فهو لصيق بى ، مثل ظلى . اينما ذهبت

لا حتى . وهكذا رحت التى بذاتى متضخمة بحجم الوجود كله . فالوجود إما غير موجود ، وعندئذ ليس هناك سوى ذاتى الصغيرة الضيقة التى وددت أن أهرب منها، وإما أنه موجود ، وعندئذ فهى ذاتى الرحيبة رحابة الوجود كله التى توجد . إننى للأسف جثة تتضخم .

كان يجب أن نعرف أننا لا نصلح لأن نعادى ، ولا حتى أن نصادق ، فالعداوة مثل الصداقة، عبء أثقل مما تحتمله امكاناتنا . كل ما نستطيع أن نفعله ، كل ما يمكننا أن نفعله ، هو أن نجارى ونساير، وإذا كشرنا فى الظلام نكشر، أن نميل مع الريح إذا هبت وان ننحنى حتى ندع العاصفة تمر من فوقنا . لا حول لنا غير ذلك، فليست لنا أشواك نتسلح بها ، ولا أنياب مسنونة، ولا قرون تبقر ، ولا فكوك تقبض ، ولا كلابات تعض . ولسنا بقادرين أيضا على أحداث صدمات كهربائية تصعق مثل سمك الرعاد ، ولا اطلاق صفير أو أزيز ، أو أحداث طرقعة ترهب وتبعد ، ولا الاتيان بلفات محكمة تعتصر حتى الموت ، ولا افرازرشات من سائل مقزز ، ولا اطلاق سحب تتيح الهرب تحت ستارها، ولا اتباع الخطط التى تضلل وتبث الفزع ، أو تمكننا من الاختفاء فى وسط مشابه محيط بنا . كل شئ ضدنا . كل الظروف مناوئة . ليس لنا مناقير تمزق، ولا مخالب تفترس ، ولا لوامس لاسعة ولا شعور مهيجة ، ولا حتى نستطيع أن نقذف الدم من أعيننا . ارأيتم كم نحن غير قادرين الا

أن نحتمي بقشرتنا القرنية ، نتكور بداخلها ، ونعتمد عليها كدرع يحمينا ويصرف عنا كل معتد أو مضمر لنا ضرا ؟

ومادمنا لا نملك ابجدية مقننة فأننا ملقى بنا فى تيه غير موضوعى. ان مجئ هذه الابجدية يعنى الكثير . من خلالها تتحقق الرغبة اللؤوب فى الافلات من الفناء الذى يهدد الانسان وأعماله .

هل أصبح موقفى مثل موقف من وقع فى مصيدة،عليه أن يخرج منها ؟ اذكر تجربة: جرذ أبيض فى مصيدة ، يدق جرس يفتح باب القفص، يجرى خارجا . لكنه يخرج ليدخل قفصا آخر، يجرى فى ارجائه.ثم يدق جرس آخر . الجرذ يجرى نحو باب لايكاد يرى ، لكنه يعلم بوجوده، فقد سبق أن مر بتجربة الأجراس التى تدق والأبواب التى تفتح ،ومن ذلك الباب يدخل قفصا آخر . وهكذا اقفاص تفتح على اقفاص ، ويجرى الجرذ الابيض من قفص الى قفص ، معتقدا انه بذلك افلت من المصيدة، ولكن كل ماهنالك أن الأمر ينطوى على خدعة. المصيدة اتسعت ارجاؤها . أهذا كل مافى الإمر ، حقا ؟

موقف خطير، ولا شك . انا فى منتصف المسافة ،لا أقوى

على التقدم، لكن التراجع فرصة لا زالت متاحة . يحتاج الأمر الى قسط من الدهاء والى الجلد والتضحية ايضا ، فهل انا مستعد ؟ هل انا كفء بما فيه الكفاية ؟ ليس هذا الموقف مأزقا فحسب، بل هو اختبار ايضا . هذا الخلل الطارئ يمكن ان يتحول الى خلل فى رجولتى ايضا ، وهو ما اعتبره اسوأ من الموت بلا جدال .

يجب أن أومن بخيرية الطبيعة الانسانية. ذلك ان فلسفة الخروج من المحنة ، تبدأبالايمان بقدرتى على أن أحل محل مايحيط موقفى من تخبطات وما يخيم عليه من ظلام اهدافا ونظما نابعة من تصورات منطقية. ان ايمانى بقدرتى على ان احل الحكمةوضبط النفس محل الانجراف اللا إرادى نحو الفوضى والخراب هو خيط النجاة الذى يجب ان اتشبث به .

لم اتلق تحذيرا . لم اتلق انذارا ، ولا حتى نصيحة . لو كانوا لفتوا نظرى أو بعثوابإشارة لماحدث ما حدث. انهم تركونى. ربما أسقطونى من حسابهم واغفلونى. منذ قليل فحصت كل شئ بامعان فلم أجد ما يدعو الى الريبة،أو يبعث فى النفس خوفا.

لم اكتشف أى خلل . يبقى ما حدث بلا تفسير ، ولكن كل الكوارث التى تنسف وتطيح انما تحدث وكل شىء على مايرام .

أجل ، أجل ، ماهذا ؟ اذكر ، ثمانية اشكال تشبه المسلات المصرية القديمة. هاهى صخور مصفوفة كعلامات طريق . طريق الى اين ؟ أهو طريق للعودة ، أم هو طريق للضياع ؟ أهو شرك منصوب أم مصادفات غير محكومة . انتظر . تكاد انفاسى تنحبس . ماهذا ؟ مبنى هائل يشبه جسرا . أين طرفه الأول ؟ وطرفه الآخر مثبت أين ؟ أهو معلق فى الفضاء ، بلا أعمد ؟ السحب البنفسجية تغلف طرفاً ، والطرف الآخر يمتد فى بحر من الظلمات .

لم آت الى هنا ومعى وصفة سحرية تكفل لى أن أحصل على ما كان ينيله مصباح علاء الدين لصاحبه . يجب أن أ حذ همتى بحثا عن خلاص ، وليس ثمة مسار تاريخى واحد للتحرك نحو الأمان . كذلك ليس بصحيح أن النجاة واقعة لا ريب فيها ، لكننى أطرد بتفاؤلى هذه الفكرة . ليس هناك قانون ثابت موحد . ليس سوى تخبط وفوضى ، ونصائح وتوجيهات فحسب . ليس ثمة شئ محقق ،

ومع ذلك على أن أواجه المستقبل ، وان أتكهن بما سيكون عليه حالى فى الزمن القريب أو البعيد . هل سأترك بلورى بصمات وآثار اقدام هنا وأرحل ؟ واين اذهب ؟ اين ذهبوا ؟ اين سأذهب .

هل للانسان غير عقله يرشده ويهديه ؟ طالما ارقنى هذا السؤال . وربما كانت محنتى فرصة للاجابة . يحتاج المرء فى بعض الاحيان الى تجريب ملم يكن له به سابق عهد . انني استخدم عديدا من المعارف ما كنت اتصور انني سألجأ اليها ، لكن من يدرى ماهو المفتاح السحرى للباب السرى ؟ المغامرة ؟ هذا هو البعد اللا محدود لجهود الذين يريدون ان يفلتوا من الموت ، مثلى .

هذا الصوت ، الذى ربما لم يكن صوتى ، هو الخيط الرفيع الذى تتدلى منه ذاتى ووجودى . هذا الصوت الرتيب الأصم المجهد ، سلسلة من التراتيل لا تنتهى ،شجنية ، مليئة بذكريات مثل ديدان فى الطين ترحف . قدم مار تدوسها وتسحقها ، ثم لا تلبث أن تعود فترحف . مطلوب منى أن افترس نفسى ، لكننى سأتشبث بالصوت .

منه اعتمد وجودى ، وارشف قطرات بقائى . كلماتى فعل للبقاء، ديمومة مستميتة تصارع الصمت والعدم ، وشئ غير هذا لا أستطيع .

الروح بلا جسد أمر لا يمكن التفكير فيه ، ولكن علم رؤية الوعاء لا تنكر وجوده ، فالوجود بلا وعاء ليس موجودا .

إننى انساب من بين ايديهم مثل حفنة من الرمال . فى اللحظة التى يطبقون على قبضتهم أكون قد أفلت منهم .

٥

وإلا لماذا ولدت ؟

كنا نسير ذات أصيل على شاطىء البحر . يميل أبى إلى الصمت ، ولا يجيب على الكثير من أسئلتى ، كما لو كان يصغى إلى صوت البحر ، والامواج الرتيبة المتكسرة على رمال الشط . كان أصيلا ساحرا . أذكره ، بحر أزرق ، رائع الزرقة ، ساكن ، ينوح فى هدوء ، والغسق كسا الوجود بشفافية صوفية يضىء ولا يبهر ، فتبدو الاشياء فى هذه الخلوة ، كما لو كانت تتحرك فى بللورة عرافة . رموز ، ورموز . كنت أسير إلى جوار أبى . أمسك بيده الكبيرة . كانت دافئة لينة . أذكر

ملمسها . أقفز كلما أوشكت الموجة أن تلمس صندلى الأبيض . فجأة رفعت صوتى – شىء بداخلى ، مثل غصة ، أضطرنى – وسألت أبى « ماذا وراء هذه السحب؟ » قال باقتضاب «السماء » صمت هنيهة ، وتأملت قوله غير مقتنع . عدت أوجه سؤالا صبيانيا آخر « وماذا وراء السماء ياأبى ؟ » قال لى « الفضاء » عدت أسأل بسذاجة . « وماذا وراء الفضاء يا أبى ؟ » نظر إلى نظرة طويلة متأنية . ثم ابتسم ، ولم يجبنى ، لكننى سمعته – وكان مديرا للمرصد الكبير – يقول لأمى عندما عدنا إلى البيت ذلك المساء «هذا الصبى سأنذره لأسفار بعيدة . ربما أبعد مما يخطر ببالك » .

انطلق عقلى من عقاله عندما شببت عن الطوق . لم يعد البيت أو المدرسة أو الشارع يتسع لى . تقت إلى رحلات بعيدة ، ومغامرات وثروات ؛ وامجاد كبيرة . ذات أمسية من أمسيات الصيف ، رقدت على العشب الأخضر . ظهرى إلى الأرض، وعيناى شاخصتان إلى السماء الفسيحة ، كجناحى نسر أسود . سكرت بالنجوم من فوق ، واتخذت قرارى . ساستحوذ على هذا الكون ، وابسط عليه نفوذى . ومن يدرى ؟ ربما أستحوذت على أكوان أخرى . ومنذ الذى يستطيع أن يحد الروح ؟ منذا الذى يستطيع أن يأخذ مقياسا ويقيس مدى ما يمكن أن تصل إليه هذه الشيطانه العارمة ؟

شغفت بالحركة . فى صباى ، استهوتنى الأشكال المعتمدة على نسمات الهواء . كنت أصنع الدبابير وطائرات الورق وكنا « نسميها عرائس » ودائما كانت عروسى تعلو عرائس رفاقى . كنت أزهو بها ، وهى تختال عالية ، عالية ، تطاول السحب .

صنع لى أبى أول عروسة —ولا زلت أذكر لونها – برتقالية اللون كانت ، ذات ذيل أخضر ، ثبت فى طرفه الأسفل قالح ذرة . هللت ذلك اليوم ، وأنا أراها تسبح فى سماء « أبوقير » طوقت عنق أبى ، وانهلت عليه تقبيلا . ابتسم ، وقال لى « أحب أن أرى الفرحة فى عينيك ، ياولدى » ثم عادت مسحة الحزن المألوفة تظلل وجهه .

ومع الأيام ، أنتقلت من الحركة المبنية على مجرد الصدفه إلى الحركة المتحكم فيها ، فقد علمنى أبى الا أترك شيئا للصدفة .

تشرب ذهنى ونظرى وحواسى بالحركة . أصبح انفعالى حركة ، واستمتاعى موازيا لحركة . ومع تقدمى فى السن وتعمقى ، تحولت من الحركة الموحى بها إلى الحركة الفعلية التى استطيع معايشتها . أصبحت الحركة محور حياتى . تدور الأشياء وأدور معها . تنطلق الاشياء وأنطلق معها . تتوقف العجلات عن الدوران ، فأصاب بالدوار والغثيان ، كأن شيئا هاما إنتزع من كيانى .

قادتني الحركة إلى الزمن .

أصبحت أومن بأن الزمن ليس بعداً بين نقطتين ، بل هو عدد – قل أو كثر – من اللفات . وأخذت أسهم بحلول فى صدد تحريك الموجودات والاشكال . أذكر أستاذى العجوز بالسنة التحضيرية وهو يقول لنا « الحركة هى الشغل الشاغل للانسان . كائن متحرك هو ، مستجيب للحركة بطبعه » لكن الحركة عندى لم تكن « مجرد التتابع » فقد اعتنقت « الحركة المعاشة » وليس مجرد « الحركة الموحى بها »

آمنت بالحركة السيالة من نبع خفى ، ابدى مثل الوجود ذاته – أهو أبدى حقا ؟ – ولهذا كانت الحركة قادرة على الارتداد الى الماضى ، كما كانت قادرة على الانتقال بى الى المستقبل ، فان استرجاع الذكريات ،واثارة الخيال ، من النتائج الاولية للايمان بالحركة ، بل انني فى كثير من الاحيان قادر ان اوقف الزمن تبعا لاجراءات محسوبة ، فاجعل الماضى والمستقبل معا فى وضع سكونى على الوجدان منعكس .

كانت عقيدتى على الدوام ان ليس ثمة إلا خطيئة واحدة ،هى ان تقول لنفسك «لن اذهب الى أبعد من هنا» . ان روح الانسان لاتعرف الخلود . ان إلهة الجنون ذات العينين الواسعتين والشعر الأشعث ترى ما هو أبعد مما تراه الحكمة . عينا اوفيليا الغريقة تريان أبعد مما ترى

كل النساء ذوات العيون الكحيلة والأهداب الصناعية لطويلة .

لم أكن بقادر ان اقتنع بقول القائلين انه ما من بحور ، ومامن مدائن أخرى ، بل كنت دائما ، وذلك من قبيل امتداد شقاوتى التى جبلت عليها منذ صباى ، أتوق الى فتح الابواب المغلقة ، وان أطل منها . كنت أعرف مقدما أننى ربما لن أجد بالخارج سوى لمرض خراب ، أو ساحة فسيحة خاوية ، لكننى كنت أقول لنفسى باصرار وعناد «غير معقول أن يكون هذا هو كل شئ» من يدرى ؟ ربما افتح بابى فيدخل الليل بهمساته وشموعه ، ارفع عينى فأرى سماء بنفسجية تتلألأ فيها نجوم كثيرة صغيرة مثل نمل فسفورى . من يدرى ؟ ربما افتح بابا فتهب نسائم الربيع معبقة بعطر العشب والشجر . لكن حتى لو لم أطل على شئ ، فلماذا لاأفتح بابا وأطل منه ؟ قد لرى نافورات ماء ونور ! ألأن كل نور جديد يحمل عذابا جديدا ؟ ولكن إذا سقطت ألن تمتد فى الأرض جذورى ، وأنمو شجرة وأرفة الظل حتى فى الظلمة ؟

كنت أتوق على الدوام إلى عالم لاغبار فيه ، نظيف إلى حد الشفافية ، نضر مثل طحالب فى قاع غدير ، ساكن هادىء ، لاجلبة ولاضجيج . ان كان لابد من صوت فلا بأس من همس

مثل حفيف الشجر . عالم يسير فيه الناس على أطراف أصابعهم خشية الازعاج ، فإذا سقط من أحدهم على الارض سلسلة أو قلم فهذا منتهى الصخب . عالم يقوى فيه الساهرون على مغالبة الأرق. وإذا تحدث اثنان فبإيماءات مهذبة . عالم ناعم الملمس ، أسيانى الدروب ، تبدو فيه البيوت بيضاء ناصعة البياض ، مثل رسوم طباشيرية على خلفية بيضاء ، تجللها سحب رقيقة تمضى الهوينا نحو الأفق . الاشجار وديعة وارفة الظلال ، لايقدم أحد على تقطيعها ، ولاتسول لصبى نفسه أن ينزع ورقة خضراء من أوراقها . تطول ، وتنبسط . تتشابك جذورها فى أعماق التربة، كما تتلاقى فى أجواز الفضاء أغصانها .

أكتشفت من معاينتى للاشكال المحيطة أوجهشبه وثيقة بين أشياء هى فى ظاهرها على غاية من الأختلاف والتناقض . السحب فى الصباح تتخذ شكل الحصى ، والأمواج بين الصخور شكل الأصداف والقواقع ، والشمس عند الغروب نار موقدة،وردة حمراء كبيرة ، مروحة من ريش أبيض غمس فى دم هذا الوجود . والضحك والبكاء شىء واحد .

انزويت بين جدراني هنا . ماعدت انزل الى شوارع المدينة . ماعدت أجوب انحاءها الا في الصباح الباكر ، قبل ان تتلوث انفاسها بعكارات البشر ودخان السولار والعوادم . أو في الليل بعد ان ينتصف فتسكن الجلبه الدنسة ، ويبدأ استعراض المهرجين والوحوش الذي يتكرر على صدرها كل يوم .

في الصباح أتسكع في الشوارع .اراها تغتسل وتتعطر الى جوار صفيحة قمامة ، استعدادا لاستقبال احباء بغيضين ، تفض غدائرها وتتمطى فتمتد ذراعاها السمروان البرونزيان الى السماء ، تطول بعض نتف السحب الهائمة اسمع اغنيتها الخافتة ، وهي تمشط شعرها ، ارايت لوحات رنوار ، وحورياته يتأهبن للاستحمام ؟ لم ترها ؟ لعلك إذن رأيت لوحات محمود سعيد .اتذكر عاريات ذلك المستشار ؟ مدينتي واحدة من تلك الحسناوات ، جسدها من جرانيت وزينتها من طمى ورمال .

في الليل يبدأ الغليان في جوفها ، وتزول من على جلدها البثور . تنتهي عمليات الامتهان التي تعانيها كل نهار ، مرمية تحت النعال والعجلات ، جاحظة العينين ، ممزقة الاطراف ، منهوشة ، مقطعة الانفاس .يعود الهدوء الى الأوصال ، وعلى الجراح تسكب بلسمها النجوم والمصابيح ولافتات النيون ، وترصع الثوب الذي يلف الجسد اللدن المسجي على ضفاف النيل ، مثل افعى حكيمة .

فالأخرج من همومى . فلاخرج عن نفسى . واتوجه الى الحقيقة الموضوعية ، فانشغالك بالبحث الخارجى يثريك ، وينسيك . فيتاح للجرح الذى فى أعماقك أن يندمل ، طالما تفادى النبش فيه أمداً كافياً .

. . . كان لنا تصورنا للعالم . لم يكن نابعا من طبقة ، لم يكن نابعا عن عقل جماعى ، لم يكن نابعا عن نزوة ، لم يكن نابعا عن أثرة وأنانية ، بل كان نابعا عن قريحة خلاقة ، قريحة إعترف لها ابتداء بالقدرة على التأمل والرفض والتخيل، وإحلال مفهوم ربما كان مبهما، ربما كان خاطئا ، ولكنه مفهوم للمستقبل. كان تصورنا للوجود أذن نابعا عن أعماق الاسطورة، عن أعماق الحدث البدائى ، بل كان تصورنا ذاته أسطورة ، وها أنا الآن أحيا الأسطورة . اتخبط فى جنباتها الخفية ، وأسير فى دروبها المتعرجة الملتوية ، كحنايا مخ انسانى ، دون خيط أمسكه بيدى يمكنى أن أصل به إلى مخرج من هذا التية اللانهائى ، الصامت صمتا يفترس فى كل لحظة ضحيته ، وما عادت أسطورة البطل الداهيه ، ولا كل الاساطير ، فى محنتى تجدينى .

أقول كان لنا تصورنا للوجود . كان لى تصورى للوجود،

وهو الذى أتى بى إلى هنا ، لكنى لا اعتقد أنه السبب الحقيقى فى محنتى ، فلابد للمرء من تصور للوجود . تصورى ؟ تصورى للوجود ؟ كلام ضخم عبء ثقيل آه ، من لى الآن بكوب من الشاى الدافىء ، أضمه بين راحتى ، وأشعر بدفئه يسرى من زجاجه إلى أناملى ، إلى ساعدى ، ثم إلى كيانى كله . اقربه إلى فمى ، فأشعر بالبخار الدافىء يلمس وجنتى ، وينساب من فتحتى الأنف إلى رئتى . آه ، ما أجمل الدفء . ما أسعد الحمل عندما يلتصق بسائر القطيع . آه ، يجب أن أطرد هذه الصغائر . هذه المتع الحسية التافهة ، ربيت على إقصائها من وجودى . اقتل الجسد حتى تتقد فى الاعماق جلوة الروح . قد يتشبث المرء بشىء يرغب فيه إلى حد الشبق ، ومع ذلك لايكون هذا الشىء ضروريا . عليك أن تعرف أن ماتنصرف اليه رغبتك تستطيع الاستغناء عنه . أنك فى الحقيقة تستطيع الاستغناء عن الكثير ، عن الوجود كله .

وحدى ارتكبت خطئى . بإرادتى ارتكبت خطيئتى . كنت دائما اتعطش إلى الفوز فى السباق . كنت أريد دائما أن أسبق الجميع ، أن أسبق كل شىء ، بل وأن أسبق نفسى . شعور ممض مؤرق مجهد ، لكنه كان شعورا لا أقبل عنه بديلا .

إيمان ؟ رجولة ؟ شجاعة ؟ كلام أجوف ، إنما هو إحساس بالحاجة إلى الخلاص ، انجذاب إلى نداء خفى من بئر سحيق . مباق جديد كان ينتظرنى على الدوام . وكنت أنافى كثير من الأحيان أخلق هذا السباق . كنت فى مرقدى كل ليلة أقول لو كسبت غدا لزادوا لى العليق . كنت فى الواقع أسابق نفسى . فى كثير من الأحيان كنت أتمرد على نفسى . نبذت الحل الوسط ، ولم ارتض إلا التطرف فى كل شىء . كنت أسارع دائما إلى حيث يطلبوننى ، وأجرى لأصل قبل من سينتظرنى ، ودون أن أخجل من نفسى ، حتى لايسبقنى أحد . كنت أقول لنفسى دائما ليس ثمة خطايا ، بل هناك خطاة فحسب ، وإنى مهما ارتكبت من خطايا أظل طاهرا نقيا مثل النار ، لأن النار مهما ألقى اليها من أقذار فإنها تحيلها إلى نار مثلها . طموحى يسوقنى . احمله على كتفى . انوء بحمله فى بعض الأحيان ، ولكنه يلكزنى دائما إلى الامام . كنت على الدوام أرجو أن يكبر العالم ويتسع . كنت على الدوام أرى آفاقا جديدة ، مدائن جديدة ، بحورا جديدة . كانوا يقولون لى مادمت قد خربت حياتك هنا ، فقد خربتها إينما كنت فى هذا الوجود ، فأقول لهم أيها الروث ؛ أيتها المياه الآسنة ، سأجعل منك وردة فواحة العطر . كنت أعرف . كنت أوقن بأن العالم الجديد ، بل العوالم الجديدة التى خرجت من أجلها ، لم يكن سرابا ولا خيالا ، وإلا فلماذا ولدت؟

٦

خاتم من الماس

محاولة بذلتها . النتيجة فشل . ظل الخلل قائما . بقينا كما كنا بلا حماية ، نفتقد الأمان ، مهددين فى كل لحظة . هناك مايقف حائلا بيننا وبين الهدف . لابد من إزالة هذا الحائل ، ولكننا لانستطيع . ليس لدينا ماهو مناسب لهذه المهمة . عم الشك فى أننا لن نستطيع . ليس بامكاننا ذلك . هكذا يقولون ، تارة ساخرين ، وتارة مشفقين . ولكن فى كل الأحوال نحن لانستطيع أهى حقيقة موضوعية ؟ لايهم ذلك ، المهم ألا تتحول إلى حقيقة نفسية . فلنجرب محاولة من نوع آخر . أجرينا محاولات

ولم تنجح الا فى المرة الأخيرة . استطعنا بعد ذلك الدخول . أضأنا الأنوار ، ونقينا الجو من كل ما هو سام ، لكن مازالت تواجهنا مشكلة . كيف نجرى الإصلاح فى الداخل ؟

كنا قد فقدنا كل شيء . لم يبق لنا سوى بعض الاسلاك التالفة المدلاة بلا فاعلية . لجأنا إلى الكاميرات . التقطنا صورا مكبرة لكل صغيرة ، كى نضع كل شيء موضع الدراسة . كنا لانريد أن تفوتنا شاردة ، وهذه الارادة مبعث تفاؤلنا الوحيد . بها ستتمكن من إصلاح العطل أينما كان ، وسنرمم ما تصدع . كل شيء أعلناه . ماكنا نريد أن نعمل فى الخفاء ، رغم أننا قادرون على ذلك ، ماكنا نريد أن نحجب حقيقة من الحقائق ، مهما كانت ممضة أو مهينة أو باعثة على الخجل . وقد عرضنا صورا ملونة لكل جوانب المحنة ، لكن السؤال الذى لازال مطروحا : هل بإمكانهم أن يفهموا ؟ هل بإمكانهم أن يتغلغلوا وراء السطوح الظاهرة ويعرفوا ؟

أنطلقنا ، رغم كل الصعوبات التى ظهرت فى اللحظة الأخيرة . كانت هناك وسيلتان ، إذا فشلت الاولى لجأنا إلى الثانية . قد يثور التساؤل عن الوسيلة الأولى . إنها باختصار ودون دخول فى التفاصيل التى قد يكشف عنها فى حينه ـ السباحة الخارجية من أجل نشر الغطاء . مشاكل جديدة تثور . الجهود

كلها مهددة بالفشل . الخلايا تسرب اليها العطب ، والسعار فى الجوف توقد . تغيرت الأوضاع . وجب ان نقدم مشكلة اخرى على المشكلة التى كانت أولى بالتقدم ، فقد يؤدى الأمر إلى انتشار الظلام وإنطماس الحقائق كلها ، ليس على الآخرين فحسب ، بل وعلينا أيضا . سنضطر إذن إلى الخروج ، مهما كلفنا الأمر . عملية انتحارية . تهديد خطير يواجهنا . ربما انتهت التجربة كلها مجهضة . تمكنا أخيرا فى الثالثة صباحا ، وانبسطت فوقنا طراوة الظل ، وعلى الفور بدأ السعار فى الجوف ينخفض ، أمكننا فى النهاية أن نتطلع إلى مبيت آمن مريح ، وبدأنا نعد فناجيل القهوة ، ونتسلى بالتطلع من خلال المنظار إلى الآمال البعيدة .

خلل جديد . تهديد جديد . الغاء ما كان مقررا ؟ حتى بقهوتنا لم نهنأ . طوينا كل شىء . خرجنا نبحث عن الثقب . كان معروفا بالثقب الضائع . فشلت من قبل كل المحاولات للعثور عليه ، أو حتى معرفة مكانه ولو بالتقريب . صباح الأحد نزل أول معول ، واكتشفنا أننا نخوض فى حفر كثيرة ، لكنها ليست على أى حال ذلك الثقب الضائع .

لدى بعض الفروض . ربما كنا انزلقنا إلى مجرى طينى صنعته ماسورة مطمورة ، وحملنا التيار المتدفق من الشرخ إلى بئر من الآبار المتناثرة فى قاع الكهف ـ أهو كهف حيث نحن الآن؟ـ

وفرض ثان أيضا ، ربما انزلقنا إلى إحدى الخرائب ردمتها فوقنا انهيارات متتالية ، وقعت إثر تجمعات حول مكاننا . قشرة بلورية . أهى من الملح ؟ أم أهى مستنقعات تغتسل فيها ملائكة ؟ كثبان من الرمال . أهى لينة ؟ يبدو ذلك . ولا تتحمل خطوات إنسان . غابة متحجرة . أشجار ممدودة وسط كثبان . جذوع كامنة ، راقدة متفحمة ، لها لون الحديد الأسمر وملمسه .

أشجار دون فروع ولا أوراق . زيت يحترق ؟ صداع مفاجىء ، يمسك بالرؤوس من الخلف . لابد أن السبب تغير الضغوط . على أذن – كما قلت – أن أحدد مدى القدرة على الاحتمال ، وأن أقاوم كل شيء ، مهما كان الثمن . من حولنا عثرنا على خاتم ثم على جعران . وتتابعت اعمال الحفر . وجدنا آلافا من التوابيت الانسانية . ثم وضعنا اليد على عدد من النصوص والدعوات لنا فى رحلتنا . أعتقد أننا مقبلون على كشف هام . المعاول تضرب الهواء . أبواب وهمية . كل شيء للأسف فى حالة سيئة . لأول مرة نعثر على قباب هوائية . عثرنا على الكثير من السدادات . أننا أذن فى طريقنا إلى الثقب الاكبر مضينا نجمع هذه السدادات ونقيسها . تأكدنا أن الثقب الضخم موجود فى هذه المنطقة . سور طويل . لابد أنه فوهة الثقب الضائع . توقفت عملياتنا بعد أن نفذ وقودنا المخصص . علينا أن أن ننتظر حتى سبتمبر القادم حتى نحصل على وقود إضافى .

الغبار يعوقنا . أهو يتصاعد من الحفرة ؟ أم هناك خرائب تجاورنا؟ أو ربما صحراء ؟ المهمة صعبة . ومع ذلك فقد انتقلنا، واعددنا جداول بحسابات يقال إنها دقيقة . هى أدق حسابات لدينا على أى حال . من يدرى متى ستتكرر هذه الفرصة ؟ علينا أن نسجل كل ما يحدث . ومن على المنصة أنصب اهتمامنا على الاكاليل المضيئة . نحلم على الدوام بالنصر أحلام يقظة . هالة محيطة . بقع سوداء . من وقت لآخر كان علينا أن نلجأ إلى قوارير السائل لتبريد حلوقنا ، بالاضافة إلى التبريد المستمد من من حركة خلايانا التى ضبطت لهذا الغرض. سنخرج ، ونرصد . الانفجارات البعيدة نسمعها هادئة ، رتيبة ، ولكن تفسيرها يحتاج إلى دراسات منا وتجارب . ما سر الحرارة الرهيبة فى قلوبنا ، بينما أدمغتنا خاوية باردة ، مثل كهوف القطب الشمالى ؟ لاأحد على كرة الغاز الملتهبة يعرف . أذرع هائلة . امتدادات شبه نفاثة . نتوءات مثل قلاع جبارة . تظهر وتختفى ، خلال خمس عشرة دقيقة هى متوسط عمر كل نتوء . ماسر هذه الأذرع الهائلة ، وما الذى يتحكم فى تكوينها ونظامها وأسباب ظهورها واختفائها ؟ أهى لتمساك بنا ؟ أم لإرهابنا ؟ أم هى تمتد إلينا مستجدية ، متوسلة أن نذهب اليها أو أن نرحل ؟ نعرف أن الأمر موجات ، ولكن أى موجات هى ؟ ثم تلك البقع ،

ما السر الذى يكمن وراء سوادها ؟ أهو نقص ؟ بالآلاف خرجنا للقاء السر ، ولملاحقته إذا فر منا . ومكافأتنا ؟ خاتم من الماس لكل منا . بقعة لامعة من الضوء كالماسة الهائلة ، سوف تخلب أبصارنا ، وتكون هى مكافأتنا ، ويالها من مكافأة ، ربما كنا لا نستحقها .

المتاهة

تمت الصدمة ، كان لابد أن تحدث حتى تنتقل من المجرد إلى الملموس . بعد هنيهة ، الهمهمات تعلو وتصبح صياحا . العيون والشفاة والرقاب والصدور والسيقان والاقدام تتداخل . تتكاثر . تصبح مئات ومئات . تختلط وتتشابك . تنحسر ثم لاتلبث أن تعود ، مدا وجذرا ، وانت أصبحت داخل الاسطوانة الدائرة تنقلب تارة إلى أعلى ، وتارة إلى أسفل ، وتارة على جنبك هذا أو على جنبك الآخر . تارة تنكفىء على وجهك وتارة تشخص إلى أعلى . وفى جميع الاحوال من حولك ، الثرثرات والهتافات وانصاف الوجوه ، والركب قد ارتدت أحذية ، والاثداء تحولت إلى مصابيح كشافة عند إشارة

مرور مزدحمة ، امرأة بوجه سمكة ، كرة فى البطن ، ورجل ذو زعانف . تارة تراكمت على صدرك أكوام من اللحم والثياب والجلود والمعادن والروائح التى تزكم الأنوف ، وتارة تتراكم انت وآخرون على غيرك ، تكتمون انفاسه ، وتضغطون عليه إلى أن يحين دوره ، وكل يحين دوره فى هذا الخلاط الضخم . ومبارك من لا يحمل على كاهله وزرا .

« لم يبق إلا نصف الساعة ، هل يمكننا أن نصل فى الميعاد ؟ » « ممكن كل شىء ممكن . ولم لا يكون ممكنا ؟ » القينا القمصان والسراويل والبشاكير والكراسات والبيجامات والأقراص المزيلة للصداع والملابس الداخلية ودهان الظهر . صاحت فى « على الأخص لاتنس أن تدعك وسطك قبل النوم . وأكتب لى كيف سيمضى بك الحال . إذا أشتد بك المرض ، الزم الفراش . لن تستطيع أن تحضر طبيبا . لاتقدر على دفع الاتعاب هناك » « ألا يمكن أن اؤجل السفر إلى يوم الاثنين ؟ أعطانى الطبيب الحقنة الأولى منذ ساعة . وقال ما دمت لاتستطيع أن تضع قدمك على الأرض فكيف يمكنك السفر اليوم ؟ مستحيل قبل بضعة أيام . سأحضر اليك بعد يومين لاعطيك بنفسى حقنة فى العصب الملتهب » اختلطت العينان العسليتان والأنف الدقيق بميناء المنبه حديث الصلاح . الدقات عرجاء ، ولكن منتظمة . قالت العينان حذار ، لاتضيع الأيام منك . المتع لاتأتى مرتين ، ويجب

اقتناصها . لا دعى للارجاء . ليس الوقت مناسبا لتحكم العقل . أرنى ، هل يمكنك أن ترقص ؟ رائع ، وتريد التسويف ؟ لاوقت عندى لك . إلى الخياطة سأذهب . أريد أن افرغ لنفسى ولابنى . أريد أن أغسل شعرى وأدفع المصاريف . « قال الصغير الخبيث الذى لايفكر إلا فى لهوه « الافضل ، أن تسافر اليوم ، يابابا . » وأردف قائلا « أريد أن أرى المطار . » من أجل نزهة يبيعك . احساس بأنك غير مرغوب . اخلاء البيت منك أمر مبيت . لا مصلحة لك فى البقاء . الحقائب تعد على عجل . معجون الاسنان ، ماكينة الحلاقة ، الصابون ، الجوارب « كم تحتاج » ؟ « أربعة » . . « أغسل جوربك كل يوم قبل النوم . أسرع . أسرع » اين المصعد ؟ نسيت الخف المنزلى واربطة العنق ؟ « يكفيك خمسة » . التاكسى . « عن طريق الجبل ؟ » « المهم أسرع الطرق ، وليس المهم اقصرها . » الاسطوانة تدور . وهل توقفت ؟ اختلطت العيون . الوجنات إبتلت . الألسنة تسرع فى أطلاق الكلمات . الكلمات أثر الكلمات . تصطدم بجدار الاسطوانة ، ويعود صداها ليختلط بالكلمات الجديدة ، وتتحول إلى أصوات ، صاعدة هابطة . صرير ، ازيز ، نواقيس ، صفارات ، محركات تدور ، هدير ، صليل ، دقات ، عجلات تحتك بالأرض . ثم صمت . أحقا كان الأمر صمتا ؟

أصابع تعبث بمحتويات الحقائب . تنبش فيها . تلقى ما بها يمنة ويسرة . فى كل الاتجاهات ، مناديل ، سراويل ، مناشف جوارب . أجمع الاشياء على عجل . أغلق الحقائب . الوجنتان شاحبتان والعينان خضراوان . سألت « هل أتى ؟ » أجابت باستنكار « ولماذا يتحتم أن يأتى ؟ » ثم سألت ولوحت بورقة فى يدى . زادت عــلامات الاستنكار فى العينين الباردتين . « سيكلفك الوصول إلى هناك كثيرا . » قات « ولكنه لم يأت » قالت « لا أحد يأتى . عليك أنت أن تذهب » استدارت . ومضت مبتعدة على المربعــات البيضاء والسوداء بقاعة التفتيش . ارتجت الأرض تحت خطواتها ، وعدت أشعر بتأثير الخلاط . زلت قدمك . وقعت الحقيبة الرمادية من يدك. انزلقت بعيدا . انكفأت على وجهك . مددت ذراعك تمسك بها . زحفت على بطنك تساقط عليك الناس . رقبتك بين فكى كماشة . يضغط عليها فخذان مترهلان تكسوهما شعيرات دموية بنفسجية وزرقاء . جاهدت كى تنقذ عنقك . تشبثت بغدائر شقراء ، وسحبت جسدك كله . لم تشك الفتاة ولم تصرخ ، أو ربما صرخت ، فما كان بإمكانك أن تتبين كل الأصوات فى هذا الصخب المدوى ، الذى يصيح فيه الجميع . أطفال تبكى . أجراس دراجة . صفير باخرة تبتعد . الحركة رجراجة . الانوار تضىء وتنطفىء . ظلمة . ضوء باهر . وهج شديد . وجوه تسبح فى الضوء الساطع ،

فلا يبدو منها شيء ، ووجوه أخرى فى الظلمة غارقة . كنت أعتصر ذهنى جاهدا أن أعرف اين ذهبت ؟ ضاعت ؟ سرقت ؟ أم هو مجرد الأهمال وا لاستهتار ؟ إعتمدت على ذاكرتى . لجأت الى تداعى الافكار . انسكبت القارورة التى احكمت العينان العسليتان اغلاقها ، ولوحت بها أمامك قبل أن تدس بها بين الملابس ، محذرة . سالت على عينيك أماكن والوان وأصوات ووجوه وأغانى واحياء وأزمان وتسجيلات وعلامات وطوابع بريد ولوحات ودراسات وقصاصات . كل هذه عتمت الرؤية . أين ؟ أين ؟ متى ؟ متى ؟ بل كيف ؟ كيف ؟ أحسست بكعب جلدى يدوس على ظهرك . سعدت ، فما أكبر الفرحة التى تجتاح المرء لعثوره على شىء ضائع واسترداده ما بدا له غير محتمل استرداده . انتشال جزئيات صغيرة من قاع النسيان أمر رائع ، له لهفة ، ورهبة ، ومتعة . لم تستطع أن تستدير فى الوقت المناسب لمواجهة الكعب الذى طبع آثاره على جلدك . مددت يدك . تلقفت علبة سجائر فارغة . نفايات . كل الاشياء المحيطة بك تبدلت . يبدو أن حركة الاسطوانة أسرعت قليلا . موسيقى صاخبة . صيحات باعة يانصيب . اعلانات فرقة الرقص الزنجى ، يرقصون كل مساء عراة فى الاستاد . مناقشات حامية عن نتائج المباريات الختامية . الالم عاد يشتد فى جنبك الأيسر . أرتفع تساؤل من مكان ما « وهل يرقصون حفاة أيضا ؟ »

والحقائب عن يحملها عنى ؟ عقلك تزحف عليه موجة ملتبة قطبت جبينك كمحاولة للتركيز والصمود . الصداع يصعد إلى الرأس من عند أعلى العمود الفقرى. انكفأت على وجهك ، تاركا الازمة تمر من فوقك ، وتتعداك ، مثل شجرة حكيمة فى مهب عاصفة . تراكم الناس من حولك . إبتسامات لاهية . إيماءات وهمهمات . ثم تهيلهم الاسطوانة عليك . تظلم الدنيا من حولك . لاتستطيع أن تحرك ساقك . كنت مثل الاطفال تبكى. سرق سائق التاكسى بعض نقودك .

العاصفة مثل كل عاصفة سكنت . رأيته أمامك . ابتسامته ماكرة ، لكنها مطمئنة . « رداميس فى خدمتك . رداميس من مكتب الأبحاث » تنفست الصعداء . « لكنك تأخرت ، يارداميس » أجابك « ثمة سوء تفاهم لابد قد حدث . وجهنا اليك النداءات بكل اللغات ، فلم نتلق إجابة » . قلت مغتاظا «كيف ؟ كنت أرهف السمع على أسمع كلمة واحدة . كنت أحماق فى الوجوه ، واتمهل فى مشيتى حتى يلحق بى أحد يسألنى ويحمل حقائبى عنى . لا أحد جاء . لاصوت سمعت . لا أحد يجىء » « اتصدق النساء على الأخص إذا كن شاحبات الوجوه ؟ هيا، لاتصدق إلاى . انا رداميس .

ها هى بطاقتى . » أخرج من جيب سترته بطاقة مربعة ومدها نحوك . كانت عيناه شبه نائمتين وحاجباه على شكل ٨ وقد أرتسمت بعض التجاعيد الغائرة على جبينه فوق حاجبة الايسر « إطلبنى كلما وجدت نفسك بحاجة إلى مساعدة فى هذه المدينة . هاهو تليفونى مكتوب على البطاقة » . سحب البطاقة من يدك على عجل ، ووضعها فى جيب سترته . مد يده اليسرى إلى فمه ، وتناول نفسا طويلا من سيجارته ، نفث دخانها فى وجهك . وقال « والآن معذرة ، إننى مشغول جدا . كثيرون مثلك فى مآزق هذه الأيام » كان يتكلم بسرعة ملحوظة ، ويضغط على مخارج الألفاظ حتى تبدو واضحة ومؤكدة . كان صوته خشنا ممتلئا ، يخرج من حنجرة قوية ، لكنه كان يميل إلى تنغيم عباراته ، فكانت تتخذ طابعا نسائيا يثير فيك شيئا من البلبلة . أصلح النظارة السوداء على عينيه ، ثم مد اليك يده اليسرى مصافحا ومؤكدا ماسبق أن قال لك « رداميس فى خدمتك . تذكر جيدا . فى خدمتك دائما . مكالمة تليفونية صغيرة وأكون عندك فى ثوان » لكننى كنت مشغولا بالنظر الى شعره . كان أقصر قامة منى ، فبدا لى أن جزءاً من شعره ليس شعره ، أو ربما لم يكن شعرا على الاطلاق . ذلك الجزء الأوسط منه ، بدا لى كتلة من الطين المحروق المحفور ، وضعت على الرأس لحكمة ما ، ربما لتخفى تشوها . أو ربما كانت

مسطحا تخفى تجويفا من الفخـار وضعت بداخـله بعض الأجهزة الدقيقة أو قطع الغيـار أو عقلا اليكترونيا إضافيا لتخزين المعلومات وإجترارها ، أو ربما كانت كتلة من الطين فحسب ، فمن الناس من يحب أن يغذى عقله بسماد يكفل له التجدد والاخصاب . كل هذه الافكار تدور فى دماغك بالسرعة التى كان يطلق بها كلماته . انحنى انحناءة خفيفة ، ومضى مبتعدا . كانت سترته مشقوقة من الخلف بشق طولى من أسفل عند المتصف ، وسرواله فضفاضا عند طرفيه . أما حذاؤه فكان فضيا مرصعا بقطع زجاجية صغيرة ملونة . كان جسمه ينثنى قليلا فى مشيته ، وخطواته فى مجموعها تشبه حركة إيقاعية نصف دائرية متكررة . خطر ببالك أن تستوضحه أمرا هاما . هممت أن تناديه : يا . . يا . . باللعنة ، نسيت أسمه . عليك أن تعتصر ذهنك حتى تتذكره إذن . لاأحد يجيء . لاصوت يسمع . كل شي يمضى ، ولاشيء يعود .

لمحته يهرول مسرعا على الرصيف المقابل ، يجوس بين الجموع بمهارة . ابتسامة مرسومة على شفتيه ، وعيناه نصف مغمضتين خلف زجاج نظارته السوداء . يرفع يده اليسرى كعادته ، ومن بين أصابعه يجذب أنفاس سيجارته . خفق قلبك لمرآه . ناديته .

صحت فيه أنك تريده فى أمر يشغلك . مضى كما لو لم يكن قد سمعك . أعدت النداء . التفت نحوك التفاته عابرة . ربما لم تكن مقصودة ، وغاب عن عينيك . أحسست بالوحدة تكتنفك ، وبأن الحجر المعلق بقلبك يزداد ثقله . مضيت بدورك مع الجموع . وليس بمستبعد أن يكون هو الذى ناداك من الرصيف المقابل ، وأن تكون أنت الذى لم تسمع ، فالطريق عريض وفى أرجائه يتبدد كل نداء ويصير صمتا ، وربما تكون أنت الذى التفت نحوه التفاتة غير مقصودة ، وواصلت سيرك فى خضم الجموع التى ابتلعتك أنت أيضا .

بزغ رداميس أمامك . قفز . تساءلت متى جاء . قال لك « أننى لم أجىء .. أننى دائما معك » عيناه وراء النظارة السوداء تبتسمان ، جاحظتين مثل عينى ضفدعة . بادرك قائلا « أراك مهموما . شىء مايقلقك؟ أنه الانتظار . انتظار مالايجىء » نظرت اليه بعينين حائرتين فلم تكن قد تبينت مراده بعد . أردف بلهجته السريعة « آه ، أطمئن ، قرأت أمس فنجال قهوتك الذى تركته على المنضدة ذات السطح الفورمايكا بجوار الشباك . قرأت فيه أشياء كثيرة » أخذت تعصر ذهنك متى شربت ذلك الفنجال ، واين . عاجلك قائلا « أخبار تنتظرها من هناك » وأشار إلى

ناحية المطار . أو على الأصح إلى الناحية التى يفترض أن يكون بها المطار ؛ فأنت ، وقد دارت الاسطوانة منذ ذلك الحين دورات ودورات ، لم تعد تعرف أين يقع المطار . قلت له « أجل ، ياردامیس . أخبـــار أنتظرها من مدينتى . » وتذكرت مدينتك ، حيث يتبارى الناس فى تحقيق الانتصارات الصغيرة ، والظفر بالأسلاب الصغيرة . قال لك وهو يغمز لك بالعين « برقية صغيرة تنتظرها » « أجل ، أجل ، ياردامیس ، هل عندك لى أخبار ؟ » نظر إلى ساعة معصمة وقال « إستمتع بكل دقيقة من وقتك وأرح أعصابك . وعندما تلتقى عيناك بزرقة البحر ستشعر بالصفاء والنقاء . وعندما ترى الجبال الشاهقة أنظر كم هى شامخة وأبية . وانس كل الصغائر التى تعترض طريق الإنسان . » أعاد النظر إلى ساعته . ثم قال لك كمن انتابه مغص حاد « معذرة ، حان موعد حفلة الكونشيرتو . سأسمع الليلة موتسارت . لم يتح لنا كل هذا الشتاء أن نستمع إلى موسيقى جيدة » هممت أن تسأله عن شىء كنت تريد أن تستفسر عنه منه منذ مدة . ولكنه كما جاء بغتة هكذا ذهب . أندس وسط الجموع ، وبينهم غاب . فقط مضيت تسمع إلى حين صوته يقول مبتعدا دون أن تراه « استمتع بكل لحظة . متع عينيك . واختزن فى نفسك قدرا من جمال لاينسى » .

ـ كانت الحركة الآن قد أوصلتك إلى وضع وجدت فيه

نفسك تتدلى ورأسك إلى أسفل . وهذا من أفضل الأوضاع على أى حال ، فالأمور نسبية على الدوام . ولامحل للشكوى. دسست يديك فى جيوبك تبحث عن دفتر العناوين وأرقام التليفونات . وهى الخيط الرفيع الذى يتعلق به وجودك فى هذه المدينة الاخطبوطية مترامية الأطراف ، التى يبدو لك فيها كل من تلتقى به كأنك تعرفه ، وأنه ليس هذا أول لقاء معه . بحثت عن الدفتر كثيرا . نقبت فى جيوبك كلها ، فلم تجده . عليك أذن أن تعتصر ذهنك كى تجده . يبدو أن ماعليك أن تعتصر ذهنك كى تجده يزداد يوما بعد يوم . خاطر عابر . ربما دسسته تحت حاشية السرير فى غرفتك الانفرادية فى الدور الثانى هناك . انحنيت تفتش عنه . انفتح الباب وراءك بشدة ، وصاحت فيك خادمة الغرف ماذا تفعل ؟ لويت عنقك وقلت لها ولازالت يدك تحت حشية الفراش ، وقد تشنجت أصابعك فى مكانها « أننى أفتش » سألتنى متوجسة « تفتش ؟ عما تفتش هناك ؟ » ثم وضعت يديها ، اللتين غطاها الشعر والنمش ، فى وسطها ، وقالت متوعدة إياك أن تكون قد سولت لك نفسك أن تخبىء أفطارك هناك ؟

« قلت لها » كلا ، كلا ، ليس أفطارى » قالت بازدراء « لعله إذن عشاؤك ذلك الذى تخفيه هناك » أجبت بهزة نافية من رأسى « ولاعشائى أنه . . أنه . . . »عما تبحث حقا تحت حشية السرير ؟ نسيت . أنطمست الحقيقة فى ذهنك تماما ، وماعدت

تذكر شيئا مما جئت تنقب عنه . دائما ، تضع نفسك موضع الشبهات ، أو إنصافا لك ، دائما تضعك الظروف ذلك الموضع . نكست رأسك معترفا بأثمك الذى لم ترتكبه ، ووقفت أمام خادمة الغرف تنتظر العقاب . « أنا تحت أمرك ، ايتها البقرة الحلوب » . ضحكت بشدة . ظلت تضحك بشدة ، دون توقف ، ومضى جسمها كله يرتج ، بطنها وثدياها وفخذاها ووجنتاها . لم أطق هذا الموقف الذى كان بالامكان أن يمتد طويلا . صحت فيها « هيه ، أيتها البقرة الحلوب » زاد ضحكها ، ودمعت عيناها . مضت تتلوى وتتلوى وتميل إلى الأمام وإلى الخلف وتضع يدها على بطنها ، وتارة على فمها المفتوح وهى غير قادرة على أن تغالب نفسها . أنتظرت صابرا ، وأنا أنظر إلى السقف ، حتى أستردت أنفاسها . قالت لى « لم أضحك منذ سنين . لم التق بشخص ظريف مثلك . من أى بلد جئت إلينا ؟ » قلت « من بلد العجل المقدس » قالت وهى تمالك زمام نفسها أخيرا « أوه ، لا تعد إلى المزاح . سأمرض من الضحك ، حقا » وفجأة تذكرت مافعلت . نسيت كل شىء ، وصرخت فى « ماذا تفعل منغلقا بين هذه الجدران الكئيبة ؟ إخرج ، يافتى ، إلى الشمس ، إلى الهواء ، إلى الجزر ، إلى البحار الزرقاء والسحب هيا ، أخرج . . » ولما كنت بطىء الاستجابة ، دفعتك البقرة

الحلزّب فى ظهرك ناحية السلم . ثم ركلتك ركلة ذهبت بك إلى باب الشارع متدحرجا .

وددت أن أسألك أيتها البقرة العجوز « هل وقعت حرب طروادة ؟ هل كان لهذه الحرب وجود ؟ »

« تهيننى ، وتطلب منى النصح والعون ، أيها الفتى الخسيس وهل أنا عجوز إلى الحد الذى يجعلنى عاصرت تلك الحرب الضروس ؟ » كلا ، كلا ، أنما استنجد بحكمتك ونظرتك العميقة للأمور ، وبمعرفتك لكل شىء . الا يجوز لى ذلك ؟ ألا يجوز » ؟ « أجدى لك أن تسأل ذلك الأعمى العجوز الذى يؤخذ الناس بسحره ، فيثير فى قلوبهم الحماس ، وفى عقولهم الأحلام والكوابيس . » « أين أجده ؟ أنه فى انحاء البلاد يجوس.. ومن بلد إلى بلد يهيم. » « قد تجده وأنت خارج من باب المبنى واقفا يتطلع إلى لاشىء وإلى جواره عازف القيثارة. قد تجده إلى جوار الاعمدة وقد تحجزت شفتاه، ويبست ذراعاه ، وإلى بعيد ينظر بعينين من المصيص . »

لم تنتظر البقرة أكثر من ذلك . أستدارت مبتعدة ، وقد

تركتك تتساءل هل قامت تلك الحرب ؟. واين ؟ أعند مضايق الدردنيل ؟ أم على رمال الصحراء فى بلاد التنين ؟

كنت تسير بخطى مسرعة فى طريقك إلى مكتب السيد زغنيارى . عند دخولك من باب البهو الكبير ظهر أمس ، ناداك الشاب الجالس على مكتب الاستعلامات . وقال « جناب المدير طلبك . قال آن تذهب إلى مكتبة فى الحادية عشرة غدا ، الأمر عاجل وهام . طلبك أكثر من مرة » كنت تقول للشاب الأشقر أنها المرة الرابعة التى اذهب فيها إلى زغانيارى من أجل طلب بسيط ، من آجل التذكرة ، ولكن ما الجدوى والشاب لايعدو آن يكون عامل تليفون ، ولاشأن له بكل هذا ؟ الشمس حامية . كلما غذيت الخطى زاد تصبب العرق منك . تحس بقطرات تسيل على ظهرك داخل القميص الأبيض . الناس من حولى ثقلت خطاها وخيم عليها الكسل . تنظر إلى وأنا أكاد أعدو وتفسح لى الطريق ، كما لو كنت ظاهرة شاذة فى حياتهم اليومية ، وبخاصة وأنا أحمل أوراق تحت ذراعى . كنت أكاد أقول لهم وأنا أنحنى لهم شاكرا « أننى على موعد مع زغانيارى » ، لكنك تذكرت جيداً قول أحد أصدقائك المرموقين الذى نصحك

ذات يوم قائلا « مادمت تحمل مرك بين أسنانك فقد سلمت وإلى مرامك بلغت » وانت تعرف أن المدير يطلبك من أجل «تذكرة» ويغيرها لن تستطيع أن تحضر المسرح ليلة السبت ، بعد غد ، مع ذات الشعر الأحمر .

عندما دخلت إلى مكتب زغانياري ، كان يتحدث في التليفون بصوته الغاضب المجهد دائما « تعال غدا صباحا ، أو تعال بعد غد ، أما اليوم فالأمر غير ممكن » مد يده . تناول كوب الماء . قربه من فمه . رشف رشفة ، وقال «لا تعتذر ، يارجل. إنه واجبنا . تعتذر عن خطأ وقع منا ؟ أنه واجبنا . تأكد من ذلك » وضع كوب الماء . تناول قدح القهوة بحذر ، ورشف منه رشفة لابد أن ننهي الموضوع . طال أكثر من اللازم . » إرتفع صوته « لسنا ممن نعطل الأعمال . أننا ضد البيروقراطية . هذا شعارنا ، جميعا . إسمع ، الأفضل حتى توفر وقتك أن تحضر بعد أربعة أيام ، أو بعد ستة ايام ، أو بعد شهر . سيكون هذا أفضل حتى نعثر على الملف الضائع . كلا ، كلا ، انه ليس ضائعا بالضبط . انه مفقود . اطمئن نحن ضد البيروقراطية » وضع السماعة . قلت له محييا «كيف حالكم . ؟ » قات «كما ترى . ماذا افعل ؟ غارق في العمل ، ولا أستطيع أن أحصل على إجازة » دخل موظف من الغرفة المجاورة ، سأله عن بعض البيانات المصلحية .

اجابه زغاناري وهو لايرفع عينيه عن الأوراق « إسأل الأستاذ كوكوريتو . ربما يعرف » مد يده فتح درجا جانبيا ، وتناول منه شطيرة من اللحم . قضم منها قضمة ثم اعادها إلى مكانها . مضى يحملق فى الأوراق المفتوحة أمامه ويمضغ اللحم المقدد والخبز المدهون بالزبد . مد يديه يفتش بين الأوراق التى كدست على مكتبه ، قلب ملفات ومطبوعات ثم صاح للسكرتارية فى الغرفة المجاورة « هل رأى أحدكم قلمى الأحمر ، ياأولاد ؟ » جاءت السكرتيرة مسرعة اليه ، وناولته القلم من المقلمة المطمورة تحت ما على المكتب من أوراق « شكرا ، ياآنسة سوباليكا ، من غيرك ماذا كنت أفعل ؟ » فتح الدرج من جديد قضم قضمة ثانية ، وأعاد الشطيرة إلى الدرج ؛ واغلقه برفق ، التفت إلى وقال « معذرة . . ستنتظر قليلا . أرسلت الفراش كى يحضر لك التذكرة . الأمر يحتاج الى بعض التوقيعات . هل تشرب شيئا ؟ تفضل كأسا ؟ » وأرانى عنق الزجاجة التى يودعها درج مكتبه . شكرته على هذا الكرم وآثرت الانتظار فى هدوء . دخل موظف . سأله « ماذا تم فى ملف الإنشاءات ؟ السيد الوكيل يسأل . » صاح زاغانيارى إلى الغرفة المجاورة جزعا : «السيد الوكيل يسأل . أين الملف ؟ » جاءت سوباليكا وتناولت ملفاً تراكم عليه التراب من على مكتبه ، وناولته إياه . قال للموظف السائل « كل شىء

سيتم على ما يروق للسيد الوكيل حالا . أننا ضد البيروقراطية . »
دق جرس التليفون ، ترك الملف . ثم نحاه جانبا . استغرق فى المحادثة . « كتبت فى الموضوع مذكرة إضافية من ثلاث صفحات. حتى الساعة الثانية عشرة مساء ، وأنا جالس على المكتب أجهزها. فقط عله يرضى عنى . أنت تعرف ما أريد منه ، وأعتمد عليك فى هذا . لفتة كريمة منه وأبلغ . توصياتك ، وأنت على الرأس دائما . مع السلامة » قضمة أخرى من الشطيرة « يا آنسة سوباليكا أين أوراق مشروع المراكز الإقليمية ؟ » هذه المرة لم تأت سوباليكا . جاء صوتها قائلا « وضعتها سيادتك فى درج مكتبك الأيسر العلوى ، ياسيادة المدير . » دلق فى الكوب قليلا من ملح فوار ، وجرع الكوب جرعة واحدة . قال لها بلهجة شاكية ، وهو ينقب فى الدرج المذكور « أوه ، إنها غير موجودة ، يا آنسة » جاءت على عجل . فتحت الدرج العلوى وأخرجتها من تحت أوراق أخرى. نظر اليك وقال «لحظة وسيأتى الفراش بالتذكرة» نسى أنه كان قد سألنى من قبل ، وقال « هل أجلب لك فنجالا من القهوة ؟ أنى أريد أن أكلمك . أرجوك خبر السيد كوزنوكو الوكيل العام المساعد بالجهود التى إبذلها من أجلك ، حتى ينظر إلى بعين الاعتبار؟ احتاج الى توصياتك ثم قال لى منشغلا « ليس لدى زوجتى فى الدنيا شاغل سوى المسارح والرحلات . هاهى قد مرضت ولزمت الفراش من برد

ليلة السبت الماضي . ذهبت إلى المسرح بثوب سهرة شبه عار . كم نعاني نحن الرجال من أفاعيل نسائنا . أقول لك أنت ، هذا لأنك أجنبي غريب عنا . تصور ؟ . . . » هم أن يحكي أمرا . دق جرس التليفون . « ويحلو للمرء أن يشكو للغرباء، فهو يشعر عندئذ بالأمان، بأمان أكبر على أى حال » .

أخرج من جيبه دفترا أسود صغيرا وظل يبحث بين صفحاته . انتابه الضيق . لم يعثر على ما كان يبحث عنه . قال لي « فقدت رقم تيليفون طبيب الأسنان ، ولا أستطيع أن أعثر عليه » جاء الفراش . جلب مظروفا . فتحه زغانيارى تحت المكتب حتى لا أرى محتوياته . تدابير إدارية عادية . أشرق وجهه وهو يمد يده لك بالتذكرة . تناولتها . نهضت ، صافحك بحرارة ، وانصرفت .

وددت أن تسأل رداميس ما الذي كان يحدث لو لم يكن أورست قد عاد ؟ وجدت الإجابة عند حكيمة الحكماء ، البقرة . قالت بصوت وقور وهى تنزع الملاءات القذرة من سريرى وتطوح بها إلى سلة كبيرة عند الباب . «ولو لم يكن قد عاد لما وقع ذلك الإثم الذى يعتبر أكبر الآثام ، أن يقتل

أبن أمه ، أن يغمد السيف فى صدرها وتتلوث يداه بدماء من ولدته . . » تنهدت البقرة ، ومضت تقول « ولكن لو لم يكن أوريست قد عاد لظلت الجريمة بلا عقاب ، ولظل السؤال حائرا بلا جواب » قلت لها « من الإجابات ، يابقرتى ما يجلب أسئلة أشد أثارة للحيرة من ذلك السؤال الذى جاء يجيب عليه . كانت كليتمينسترا ساعة أن كان يهم أورست بقتلها تريه ثديبها اللذين منهما أرضعته ، وكانت تتوسل اليه : لاتقتلنى ، يابنى لاتغمد سيفك فى صدر من أنجبتك . لاتغمد سيفك فى . أين الإجابة أذن يابقرتى ؟ أين الاجابة ؟ » « بل أين السؤال ، يابنى ؟ » ثم أردفت تقول « على أى حال، مضى وقت الاجابات والاسئلة . أرى أنك بدأت تخرج، يافتى . حسنا تفعل ، اكثر من الخروج ، ولا تلق بالا الى الأسئلة »

الصناديق

كنا ننتظر ، رحنا نتلفت حولنا بلاهدف تقصله عيوننا . مجرد حركة تملأ فراغنا . سرحت بعض الأنظار بعيدا . زاغت. غابت ربما فى الماضى ،تستعيد جزئياته ، ممزقة مهوشة غير مكتملة ، مهما خيل أنها أكتملت وتماسكت. وما الجدوى ؟ بعضنا راح يفكر فى المستقبل ، فى الغد البعيد أو القريب أو القريب جدا ، ربما . اللحظة التالية ، ماهى ؟ أطياف مبهمة ، مهما وضحت وتجلت . والبعض لا يفكر ، أكتفى بأن راح يتلفت من حوله . البعض أسند صدغه على راحته وأغفى . أكان يحلم ؟ البعض راح يتحدث ، عن أشياء حدثت ، عن أشياء تحدث ،

وربما أيضا عن أشياء لاتحدث أبدا . ينهض البعض، وعلى غير هدى يتجول . يقف يضع يديه فى وسطه . يشد قامته ، ويرنو إلى بعيد ، كما لو كان يتابع شيئا .

ندت صيحة . صاح واحد إلى من بجواره « أنظر أنظر » التفت ورائى من الزجاج بدت السماء ضحوكا . سحب خفيفة تغطى الافق ، تمشى الهوينا . لماذا كان الجو رائقا هادئا ، وأديم السماء مغسولا إلى حد الحلم ؟ ألأن النهار يولد من جديد ؟ من ندت منه صيحة أشاح بوجهه . عاد ومن إلى جواره إلى أغفاءة . المماشى من حجر لامع أسـود . تمر من وقت لآخر فتاة بسترة زرقاء تجمع من عليه نفايات وبقايا ملتاة . يفد من حولى ثغاء أطفال . الفاظ متآكلة ، وعبارات ممطوطة . الأم تنهر . بكاء مديد لايلبث أن يسكت ، ويعود السكون إلى الردهة الرحيبة التى تنفتح على بوابات الرحيل .

جاء الصوت آمرا مرتقبا . هببنا من مقاعدنا المعدنية متثاقلين لهفين ، ومضينا . اصطففنا صفا طويلا ، نحمل لفافات وحقائب . مررنا إلى الباب الذى أعلن الصوت عنه وارشدنا . ثم دلفنا خطوة خطوة مثل ثعبان مريض إلى الساحة . خطونا على رمالها . ودخلنا إلى الصندوق المقفل .

أحب أن أنظر كى أرى . لكنى أنظر ولا أعرف أين أنا .

أجلس فوق حبل خشن أجعد . وحزام النجاة ، أين؟ أين؟ أيتها السحب ، أين تذهبين ؟ ولماذا تبدين اليوم حزينة ؟ أسلمت زمامك لراع كسول ، وتركته يسوسك عبر حقل أزرق . لا ، لاتنظر إلى أسفل . لكنه تحت المقعد ، عند قدمى . تجلس على قمة جبل أملس . أنفتح الحقل الأزرق ، وصرت ترعى فيه بدورك .

صاح الطيار من قمرته « مثل النوارس على البحر نطير» قلت كالأطفال «فلنعط الأرض ركلة ولتذهب تتدحرج » وقال آخر « لنلق بأنفسنا فى أحضان الفضاء » قلت« لنخرق الهواء فى مقلتيه اللعوبتين . »

صحراء ممتدة ، ليست صفراء ، رصاصية ، تلمع عند الأفق. الشمس عند الظهيرة خلف الحائط الممتد تتوهج ، هامات الأمواج فضية ، وشجرة فى الضوء الباهر من بعيد خضراء ، قائمة ، وحيدة ، تقول « ها أنا ، وأنت ؟ من أنت ؟ » .

انفتح الصندوق فجأة ،ودعينا للخروج إلى صندوق آخر ،

أكان عشة فراخ ؟ نساء تنقنق . عجائز يثرثرن ويضحكن ، كقرقعة خشب جاف تطأة أقدام ثقال خفية . أين أنا ؟ البلاط نظيف . التفت إلى الشباك الطولى الرحب. لابد أننى ضللت الطريق ، لكننى كنت أعرف أنى بخير . هواء البحر ينعشنى . والشجرة السوداء من بعيد تقول « أنا هنا . جذورى متشبثة بالأرض ، ويقلبك أيضا » بالخارج أمواج من الضوء . السماء زهت حتى لم يعد لها لون . قشلة بيضاء التصقت بالزجاج . انحن داخل برطمان ؟ العجائز يتجمعن. ينفقن النقود فى الحوانيت الجانبية . يشترين أساور وحلقانا وتذكارات من أفروديت. « أولدت هنا حقا ؟ » قالت العجوز ذات النظارات ذهبية الاطار « لا أعتقد ذلك » قالت أخرى لم تخف التجاعيد الغائرة على وجنتيها، وطلت شفتيها بروج أحمر ، فبدت مثل وردة فى طبق من الخزف الابيض. « من محارة كبيرة خرجت » قالت الأخرى معتزة بمعلوماتها ، وكأنها لفرط شيخوختها عاصرت الآلهة الجنية « بل من جبين جواد قفزت »سخفت الأخرى من رأيها وقالت « تقصدين بيجاسوس » .

٩

الإشــراقات

جاءت تجرى .. دائما تجرى ؟ توردت وجنتاها . انهلت على المقعد . راحت تقرأ . من الحر تشكو . خلعت جوربها الأحمر ، والقت به تحت المقعد . قالت « لاأستطيع » خلعت بلوفرها الملون . وهى ترفع ذراعيها إلى فوق ، بدا نهداها أكثر . القت لاشياء كلها فى حقيبتها ثم راحت تدلق حقيبتها فى حجرها . تبحث فى بقاياها عن شىء غير محدد . غمغمت . ثم أعادت الاشياء إلى حقيبتها . راحت تقرأ . عادت تتأفف بصوت ممطوط يتكسر «لاأطيق الحر. أريد أن أخلع هذا أيضا »

أشارت إلى بلوزتها ، عارية سأبقى . أكاد أحترق ، راحت تقرأ ، ماذا تقرأين ؟ ، ، مقطوعة حب . هـل تريدنى أن أترجم ، ؟ راحت تقرأ بصوت يتهدج ، تجيدين الالقاء ، . ، ومع ذلك لا يعترفون بي ، عادت تقرأ . كلمات عن حب نبيل نقى بين رجل وامرأة. تنتهى القصيدة بهما إلى جوار مهد طفل أمتزج فيه وجودهما . ، تحبين الشعر ؟ ، ، أعشقه ، ، شاعرة ؟ ، ، كتبت ديوانا ، ، ما أسمه ؟ ، غام الحزن فى عينيها ، ضراعات ، الشمس بين الأغصان عن بعد تغرب . خلف حائط من طوب أجرب . قال الصوت الأجش ، على هذا الحائط نقشت أقدم كلمات ، زحفت عتمة المساء الآن . نعق غراب يودع النهار ، وعلت من فجوة فى الجبل صيحات وطاويط ، فرحة ، تثير فى القلب أنقباضا ووحشة . قلت ، ضرعات . تتضرعين ؟ ، نظرت إلى أظافرها المطلية بلون وردى ، لم أكن على وفاق معه ، وانفصلنا . لم يكن يعنيني هو . الذى مزق قلبي ابنى . راح من لقائه يمنعنى ويحرضه ضدى ، أضحت نظرته إلى بلوره عدائية . أريد أن أخلع قميصى هذا ، جلت بعينى فيمن حولنا ، وتبقين عارية ؟ ، ، لا يعنيني أحد ، غرقت فى القصيدة ، تقرأها بصوت رخيم ، وان كان قد أمتلأ بتهدجات تعبر عن وجد دفين ، عن مرثية حب ولى ، لكن دون ضعف ودون أبتذال . كنا نصعد الجبل . أمسكت ذراعي

وعليه اتكأت . كان كل كيـــانها يتكلم . قلت للسائق « وددت أن أقضى بجزيرتكم فى الصيف القادم شهرا » قال « أعرف بيتا » أومأ عاليا « على قمة الجبل » ونظر اليها « كم يكلف ؟ » « ليس غاليا » علا التصفيق . أنهمرت من أعلى الجبل حجارة وزهور وحشائش ونباتات برية نفاذة الرائحة ، أكان ثوبها أحمر ؟ كان ترابا أحمر أثير مع الحجارة والزهور وأعشاب الجبل المتدحرجة . غلفها . حجبها عن عينى . أطلت برأسها من سحابة الغبار المبتعدة . قالت « وأنا أعمل صيدلية . من أعشاب الحقل البرية أصنع أدويتى . سأذهب وأجلب لك بعض العصائر لتتغذى » انحنت تحت الريع . غاصت ، وعندما نهضـــت لم تكن هى . كانت امرأة أخـــرى بنظارات وثوب أسود قالت « وأنا . . أتعرف من أنا ؟ » هززت رأسى نفيا « مرافقة » « لأمثالى ؟ » أخذت بيدى وسرنا بجوار الأسوار المتعرجة حول المدينة . « أترى الخندق ؟ هيا نصعد » وصلنا اليه . « من أجلى جئت ؟ » نكست رأسى ونظرت إلى غطاء القبر الرخامى . طفرت من عينى دمعة «تبكى ؟ » تذكرت الجسد الدافىء الذى أتكأ على . باطل الأباطيل الكل باطل . كدت القى على الأرض بقلمى وأدوس عليه « سحقا سحقا » لكن الصوت هذه المرة جاء من تحت الثرى وهمس . « لاتستسلم . وهل لك غير أوراقك وقلمك » بعد لحظة قال أيضا « شىء

واحد أريده منك . . من أجل الخلاص فليكن قلمك ، وليس من أجل الجمال فحسب ، الجمال ضائع ، ضائع . . والأمل الأوحد هو .. أتعرف ماذا ؟ » هززت رأسي وقلت « في أي خلاص لا آمل » قال الصوت المتنهد «ومع ذلك فواجبك ليس فحسب ان تأمل بل وان تعمل ايضا..» قالت «تعال معى» نزلنا جبالا ، واجتزنا وديانا بالزيتون والعنب والطماطم وشتى المزروعات تزهو . صعدنا درجات متآكلة ، ودخلنا أبوابا وهمية وجسنا فى فراغات كانت ذات يوم ابهاء . . أين الأعمدة ؟ ذهبت إلى الأبد . أكلها حريق مجهول السبب . لاشىء يبقى . نزلنا إلى سراديب مظلمة « الديك شمعة ؟ » « كانوا يفضلون العتمة » رأيتها عند منحنى سرداب ، بثوبها الأحمر . . هممت أن أجرى نحوها . قالت مرافقتى « لاشىء هناك . لاتوغل . هذا أقصر التيه ، والثور قد يفترسك . اللون الأحمر فى أعماقك قد يثير الوحش . قد يوقظه فيك ، وتضحى بلورك بقعة حمراء كبيرة على بلاط هذه السراديب التى وطأتها حوافر الثور المعبود يوما . أتعرف أنهم كانوا يلعبون ؟ » إتسعت الابتسامة على شفتيه وهو يرى رواد ملهاه يتوافدون . ليلة بعد ليلة يتزايدون : إقبالهم على القاعات الأنيقة يتعاظم ، ووجنتاه تحتقنان وتحمران : ثور عصرى . لايختلف كثيرا عن الثور القديم المهيب المرتقب

الذى يدب ويخور فى الأروقة المتعرجة المظلمة بقصر التية الذى أصبح اليوم فندقا . رأى ذات الثوب الأحمر تجوس بين الموائد أشار للخدم أن أمسكوا بها . « القوا بها خارجا ، فأنا غير الحريق لاأخشى شيئا . » أختفت . كانت الآن على قمة الجبل. شعرها فى الريح يتطاير خيوطا من اشعة شمس تغرب . وقد وفد صوتها ممزقاً « سألقى بنفسى » قبل أن أفكر ماذا أعمل ، امتلأ الجو بغبار أحمر . رقيق شفاف ، دافىء . كان الثور يجرى ويلهث ، والغبار بفعل حافريه يثار . راح فى الهاوية عنها يبحث .

من يصبر حتى المنتهى؟

راحت الريح تصرخ فى أروقة الصخر ، وتلوى فى أذنى.
« شخنا جميعا . شخنا » هذه كلماتها . كلمات الملاك الذى لم تقو الشيخوخة أن تقلل من وداعة عينيه أو تخدش نبل القسمات بغير بضع تجاعيد لا تعنى شيئا. أمسكت اليد وسألتها عنها قالت « فلنذهب بعد الغداء اليها؟ كان الطريق طويلا ، طويلا ، وكلما أقتربنا من نهايته بدا أكثر ضراوة ومهابة وحزنا . بيت مطوى على نفسه قلت نوافذه وطوقته الأشجار . دققنا الجرس . لم يجبنا أحد . دققنا الجرس من جديد . فتحت لنا . تمالكت نفسها :

لم تبك . زمت شفتيها قليلا ، ورفعت ذقنها بإباء ، ذلك الاباء النبيل الذى أعرفه. أدخلتنا صومعتها ، ملاذها الأخير ، بعد أن ودعت الدنيا ، كل الدنيا ، وأغلقت على نفسها ذلك الباب الخشبي الضيق . كانت على الدوام أشجعنا . قالت لى ونحن ننزل الطريق المقفر الذى أزداد برودة وعتمة : ماذا أفعل ؟ أشكر الله أن هدانى وايدنى . أرشدنى . إنتشلنى من السراديب الملتوية . أخرجنى من عتمتها . الذى أعرفه أنها حيثما هى الآن لابد أن تكون أحسن حالا ، إيننى أقصد ، أدت واجبها. ولابد أن الله أختارها إلى جواره . فى لحظة وامضة خطفها ، أطل على وجه ذات الشعر الأحمر ، هذا ما سيحدث لك أيضا . أوصيك أن تضع نصب عينيك أنك فى لحظة ستذهب . لاترهق نفسك بما لاقبل لك به ، فجسدك هو بيت الله . أجماة كذلك ، وهو لايريد أن تثقل على بيته ، وترهق دعائمة . أترك كل شىء . وجه جهدا أكبر للخدمة ، فهذا ما يبقى لك حقا . جاء الموت فوجدها على أهبة الاستعداد . قال لها « هيا » قالت «لبيك . معك أذهب » . أتعرف ؟ ابن جارتنا الصغير حلم بموتها . نهض – هو فى السابعة – قال ذلك الصباح لأمه . « لن يأتى بعد الآن الينا . رأيتها » وقالت لى ستتوقف عن الدروس » كانت تحبه ، وتعطيه من روحها الكثير . ولهذا أحس بها وتنبأ . قال أهله « لن نجد غيرها » قال الجميع « ليس هناك من هو أفضل

منها » كل شيء في لحظة جرى ، لكن كل شيء كان على المدى الطويل يدبر . اختارها الله إلى جواره . ليس لنا إلا أن نقول إنه في اختياره أكثر حكمة مما نتصور .

نزلنا المنحدر . هبت الريح . أحسست بالبرد ، أما ذلك الإنسان الهزيل العجوز الذى نحل عوده وذوى جسمه فكان صامدا في وجه الريح . كان أقوى من كل الأنواء . تسلق الجبل وظل يطل من القمة مثل نسر وديع . أما نحن فأيدينا تسلخت . ورحنا نتوقع السقوط إلى الهاوية بين لحظة وأخرى ، مهما تشبثنا بحجارة خرعة . كنت أمسك ذراعها ، وأنا أعرف أننى لاأمسك أنساناً عادياً بل أمسك بطلا . يجب أن يعطى الإنسان ، وقد أعطت . وعند نهاية الطريق وقفت . لوحت لنا بيدها وقالت لى « لاتتأخر يوم الأحد . سأنتظرك . » ثم أردفت تهتف إلى وأنا أمضى مبتعدا « للسراديب أبواب كثيرة . حذارى إن وجدت بابا مواربا ، معتما ، وخشبه متآكلا » .

كنا نسمع وقع حوافره ، تدب دبات مكتومة . توقف عندما أبصرنا . نكس قليلا رأسه الضخمة السوداء ، وشرع قرنيه . كانت له جاذبية من الصعب أن تقاوم ، احسنا بأحشائنا تصطخب لم يكن ثمة بد من أن أهرب . جريت من أمامه ، وجريت . كى تهزم الوحش احيانا يجب ان تتواضع ، وترضى بأن تهرب ، أن

ثولية ظهرك كأى جبان ، وتطلق العنان لساقيك . لا تخجل . دعه يجرى وراءك . سوف يدركه التعب. وعلى الأخص لأن الشحوم على بدنه تثقل من عبئه ، وترهق عزيمته . دعه واهرب ، أنت أيها الهزيل الأعجف (قالت يحزننى أن أراك قد فقدت الكثير من وزنك) لن يلبث أن يخور ويلهث . ميسيل اللعاب الدنس من شدقيه ، ويبرك ، ثم ينكفىء على قرنيه ، وعلى الأرض يرقد. وانت ؟ رحت تركض فى الدهاليز ، تميل حيث تميل ، وتنثنى حيث تنثنى ، وتستقيم خطاك حيث استقام الرواق. ثم يصدمك الحائط قبل أن تلحظه فترتد حائرا وهلة ، وتمضى تعوض ما فاتك من وقت حتى لا يدركك . لا تلتفت وراءك ، فأنت واثق أنه فى اعقابك . تركض . فى حنية من الحنيات ، ينتابك ذعر مفاجىء لخاطر قفز الى بالك . ترى ، أليس من الجائز أن غير طريقه ، واستدار ليواجهك عند منعطف قريب؟ تجفل . تتسمر فى مكانك. ترهف السمع . تعود اليك السكينة ، وقد تأكدت اذناك أنه لا زال فى اعقابك يركض، فتواصل الركض بعزم أكبر. لابد أن تفلت . تلهث . تستنشق الهواء الملوث برائحة الروث باقبال أشد . ماعدت تشم سوى العفونة ، تجرى . تعثر قدمك فى بركة صغيرة من النتن ، فلا تكترث بالامر كثيرا ، وكنت من قبل شديد الاعتناء بنظافتك .

اندفعت بكل ما أوتيت من قوة تركض . قطعت مئات

بل آلاف الاميال . ربما كنت قد طفت الأرض كلها . ماعدت تسمع الخوار وراءك ، ولا دبيب الحوافر فى احشائك ، لكنك كنت تطلب من الامان المزيد تلو المزيد ، فالدبيب والخوار قد يبزغ أى لحظة فى اذنيك من جديد .

دققت الباب بقبضتك . سألك من الداخل صوت دافئ «هل اتيت؟» دفعت الباب بقوة ، وبسرعة عدت تقفله ، وبظهرك عليه اتكأت . قال لك الصوت الحنون «انفض من على ملابسك الغبار الاحمر ، وتعال» . قلت مجفلا دون ان ترى صاحبة الصوت «ومن اين عرفت»؟ قالت جسدك كله مثخن بالجراح . ركبتاك متسلختان » قلت «انما كانت العب مع الوحش فحسب . نلعب معه دائما . ويالها من متعة كلما تجمد الدم فى عروق وأنا المح القرنين المسنونتين تساطان على ! أحمى بطنى بذراعى ، استدير اسابق ساقى للريح . » «لم يعد لديك وقت طويل كى تلعب مع الموت» «انى اضيع وقتى فحسب» «هو مقبل عليك» خلعت نعليك وضعتهما خلف الباب . ثم عدت تحكم الرتاج . ضحك الصوت ، وقال «هنا الدار امان» مسحت بكف يدى العرق من جبينى وصدرى ومن على العنق . مسحت أيضا شفتى . قال الصوت «عطشان انت ؟ بعد قليل سترتوى» .

فى دهاليز قصر التيه كانوا يلبسونهم اردية حمراء، كى يثور الثور ويغلى دمه . يشتهى الجسد فينقض عليه : يبقر البطن ، يدوس على الصدر بحافريه الامامين ، وينكفئ على الضحية يرتوى. يزهو بالنصر فيعلو خواره . أكان ثورا ؟ ام انسانا يتخفى تحت جلد الثور ، يهوى لعبة القتل ، ويتفنن كى يدخل البهجة إلى قلبه الذى لايعرف البهجة ابدا ؟

رأيتهم من وراء الزجاج البلورى لبهو الفندق الكبير . أنيقون ، معطرون . صففت شعورهم ، واختفت التجاعيد تحت المساحيق ، وحول الجيد الجعدة عقود الماس والياقوت واحيانا الزجاج أتقن صقله فبدا اجمل من الفصوص الحرة . الحديث بصوت خافت ، والحركات رشيقة ، والإيماءات مهذبة . جو من الألفة والسعادة ، لكن من وراء الزجاج كان يبدو ما امامى كما لو كان صندوقا زجاجيا كبيرا احتوى على دمى ، فى ظهورها أو فى موضع ما من بطونها مفتاح زنبركى يملأ ، فيتحركون ويتكلمون ويضحكون ، ويتبادلون المجاملات . وإذا بأعماق صوت يهتف « أيها السعداء إنى أحتقركم . أتعرفون ما السعادة حقا ؟ هى أن تكون لديك القدرة على الاحتفاظ بحزنك رغم كل شىء ، على الاحتفاظ بحزنك ، شامخ الانف ، أبيا . كم تساوون أنتم ، أيتها الأحجار الجيرية الهشة ، والعجائن اللزجة ، بجانب

صخرة راحت رياح السماء تصفعها وتلعقها السنون تلو السنين ؟ أين أنت أيها النسر ، ذو العينين الثاقبتين و المخالب الجارحة ، يامن تعرى العظام من اللحم ، كأمهر نحات فى الدنيا ؟ الا تأتى إلى هذا البهو الأنيق لتعمل مخالبك فى الجثث المعبقة يدهون التحنيط ؟ أم أنك أيها النسر ذو العينين الثاقبتين والمنقار الحاد والمخالب المسنونة رحيم وديع ، لايعرف قلبك مرارة ولاضغنا ؟ سموت فوق كل المتع وتعديت كل الكماليات وزهدت كل شىء ، حتى أصبحت قويا حرا حقا ، فماعدت تطمع فى شىء ، أو تتحرق شوقا لشىء . وأدت فى عروقك وشعيراتك كل نبضة لهفة وكل وخزة وكل رعشة وجل وكل ترقب . وصارت نظراتك إلى بعيد ، إلى المنتهى ، إلى اللاشىء . أصبحت ترى ما وراء الماوراء ، وتسمع مالا يسمع . ترى ، ماذا ترى؟ وماذا تسمع ؟ ولكنك قبل كل ذلك أديت كل ما عليك ، سددت ديونك ، وصفيت حساباتك جميعا . وعن التزام واحد لم تنكص » .

عتمت العينان . دب الدوار فى الحياة كلها . إلى مرقد أملك الترابى إهجع . وقفت على العتبة تنتظرك . تمسك قنديلا من عشب أخضر ، تضىء لك مواطىء قدميك ، وتحمل دنا من نبيذ تسقيك . « أشتقت اليك ليال وليال ، تقت لعودتك ،

يا أيها الحبيب الغالى . » أستحال البحر الصاخب نبيذا أحمر : وبين الطحالب الخانقة إنطفأت الأرض . إستيقظت الجثث الغرقى . صار الجسد روحا نضرا . ثم صارت الروح أثيرا . وفى الصمت الكبير الأجوف سمعت صرخة . «إلى الله دائما أصلى من شىء واحد أشكو . لماذا ، لماذا يارب خلقتنى إلى هذا الحد قاصرا ، تكاد نقائصى تقتلنى ؟ ألا تشفق على ؟ » قال الصوت الحنون «ربما يحبك » . «الأنه يحبنى يدفعنى إلى الجنون ، فأتمزق؟ لماذا لايضع يده على قلبي ، ويدخل السكينة إلى نفسى ؟ لماذا يتركنى فريسة ؟ أجرى ، أجرى ، ويكاد الثور يلحق بى ، ويطعننى . لماذا من تحت حوافره لاينتشلنى ؟ » « سوف أصلى من أجلك . أنت كما تعرف ابنى » نهضت وقالت « نثرت لك الورد فراشا ، وعند مسند رأسك نضدت الرياحين . قم يابنى . بسطت لك مائدة ، لتأكل وينشرح قلبك » « ماعدت أريد طعاما ياأماه ، ولا أريد أن أذوق خبزا . لو كان لديك فراش توسديه أنت يا أماه ، وأريحى عظامك » . « تعال يابنى ، تعال » وفد إلى صوتها من خلف الباب الخشبي ، عبر ظلمة الليل يسرى . قلت «ماعدت أريد شيئا . اليوم رأيته . أحبه . رأيته يا أماه مثل حلم ، مثل خاطرة تتبدد . سمعت خطواته بالقرب منى تقول لى « تشجع . مامن أمل أمامك سوى ألا تأمل . تشبث بقلمك جيدا وبأوراقك . ضمها إلى صدرك ولاتترك الريح تخطفها منك وتذورها بددا . تشبث بأحزان قلبك ،

ولا تقبل أن تتعزى ، فالهم كبير والحمل ثقيل . صندوق فارغ على كاهلك تحمل . لو وضعته أرضا ، فسترقد فيه ، وتتخذه نعشا وقبرا، تتحلل فيه رفاتك ، وتصبح حفنة من تراب مثلى . ويجثم الصندوق على كاهلك الدهر كله » .

وجه أسود ، قرنان ذهبيان ، خياشيم بيضاء . عينان حمراوان تتابعانك . تثقبان ظهرك إذا أدرته لها، وتخرقان صدرك لو استدرت تبادلها النظرات . من غرفة إلى غرفة ، سرت بخطواتى تدق الارض الصخرية ، وإلى أنفى تتصاعد روائح زنخة ، رأس ضخم على جسم إنسان . إذن ، هو. قناع قاتل مجنون يتنكر وراء رأس من الخزف الملون ، أو من الورق المقوى . ومن فتحتى العينين يتحرك الإنسانان . أنه يتحرى ويرقب . للخيانة ينتقم . يشرب الدماء ، ويلغ فى الروث ، يطالب بالفرائس . كل يوم فى الأروقة المتعرجة المظلمة تطاق ، ويبدأ فى الظلمة اللعبة . شهريار جديد ، لكن بلا شهر زاد . ياقناعى الغريب ، البشع المخيف ، يامعبرا عما بداخلى، فلنبدأ اللعبة، ولنطرد عن قلبينا السأم . طيبة هذه الأروقة . يضل فيها الابرياء والحمقى . تروق لنا . خانقة الأنفاس ، زنخة . تعشش فيها من روحى الوطاويط ، تمص معى الدماء . وتسرح العقارب ، تلدغ وتنفث

سمومها فى الجثث المتقيحة المنتفخة . فلنأخذ منها نصيبا ولننهشها مليا ، كى تعتم فينا الذهن وننسى .بين فكى أعتصر الاعناق ، وبذراعى العصبيتين أسحقها. ولا تكف الأروقة المظلمة عن أن تردد أصداء قهقهاتى ، تعلو على الأنات الماضيات مع تيارات الهواء الذى يعوى . وتحت الأقدام يشاركنى اله الزلازل صارم القلب حزنى .

فى الليــــل

ينبح كلب . نغمات بيان : خطوات . دقات ساعة . فحيح عربات. ابواق . صياح صبى . ولد يقلد صوت كلب فى الشارع . صفارة شرطى المرور . ابواق متكررة طويلة ، ممدودة ، مبحوحة ، قصيرة . مقتضبة . تعلو نغمات البيان . صوت نفير يطعنها . اغنية من مذياع . تتثاءب . تسأل « الم يحن وقت العشاء ؟ » صوت باب على سلم الخدم يفتح . تأتى قيامة ، ثم يقفل الباب . تسترسل فى ذكرياتها . تذكر موتانا ، وتترحم عليهم . جرس المنبه ينطلق. تنبهه فى غير أوانه . تسألنى « ألديك عمل كثير ؟» اقول لها كذبا

« كلا » . خطوات تجرى بالدور العلوى . صنبور بحمام الجيران الملاصق . انفتحت اشارة المرور . . اندفع هدير المركبات . . البواب ينادى « اقفل الباب يامن فى السابع » . صمت .. صمت غير مستقر .. تنهض .. تدس مفتاحها فى باب الدولاب .. تئز الضلفة الخشبية وهى تشد .. تفتش عن شىء .. الحبوب المسهلة؟ تصلصل مفاتيحها .. تغلق الضلفة ذات المفصلات العتيقة .. خفاها يزحفان على الارض . . يبتعدان خارجين . . باب الشرفة يئن . دفعته نسمة.. صوت كاتب التقارير بالطابق العلوى يصرخ غاضبا فى اولاده بعصبية . الصنبور انفتح.. تناوت الحبوب.. شربت.. سكت الصنبور . . عاد خفاها يزحفان عائدين عبر الممشى . . راكب موتوسيكل أطاق فى الشارع لبنزينه العنان، ويصيح هاتفا مع آخر – ربما يركب خلفه– «اهلى..اهلى» يشاركه الهتاف منادى السيارات الأبلة الواقف تحت العمارة.. نغمات البيان الآن سريعة .. سريعة .. شجنية .. موكب من الصياح والتهليل يمر بالميدان .. تختلط بالهتافات كلمات مبهمة تعلو منهاعبارة «ياعريس .. ياعريس» تسأل «اهى ليلة الخميس ؟»اقول «كلا» «اهى ليلة الأحد؟» «كلا» تقول « اليس هذا موكب عريسن ؟ » . اقول «اصبح الناس الآن يتزوجون كل يوم . ماعادت الافراح قاصرة على الخميس والآحاد » . اعود لكتابتى .. تتثاءب وتقول « ليس لدى نوم الليلة » دلقت سيدة الدور الثالث صفيحة القمامة على عتبة السلم . ماءت قطة . تتثاءب ..

وتقول «الأرق يلازمني» تتقلب فى فراشها، ثم تنهض. قالت «هذه القطط منقذتنا. اتذكر عندما غزت الفيران سلم الخدم؟ كنا نبحث عن قطط. تمنينا وجودها. هى حارسنا وحامينا» رنات ناقوس خفيفة .. ترهف السمع .. لعله معلق فى عنق حمار واهن . . دقات حوافره على الاسفلت لا تكاد تسمع. لكن الرنين الخافت مثل شكاة متواضعة فى الليل تمضي .. اصوات اطفال تعلو من أحد الشوارع البعيدة. يأبون النوم. ربما اثباتا للرجولة أو استمتاعا بمزيد من اللحظات قبل الخلود الى الفراش. كلب كيكى ينبح. ينبح. . مخالبه تخمش الارض من فوقى. على درجات السلم اقدام خادمة صغيرة حافية القدمين تنزل مهرولة، لتلحق بأخرى سبقتها، وتنادى عليها. .صراخ من غرفة نوم مجاورة. . طفلة انتابها مغص مفاجيء تبكى، وتتأوه .. أمها تستمهلها .. تغلى لها كوبا من الينسون يدفىء أمعاءها، ويذهب عنها الوجع. . صوت المذياع يعلو . . سهرة الاسبوع بدأت . . صيحة عالية آمرة . . يسكت المذياع فجأة . . ويغوص الغناء فى لجة الليل ويصمت . . كلب فى الشارع ينبح .. صوت مكتوم يصدر من حنجرة محشوة . . أرهفت السمع وقالت «منذا الذى يسير فى البيت ويسعى؟» قلت «لا أحد، انها أصوات بالخارج» بعد قليل قالت «منذ الذى ينام بالغرفة الداخلية؟» قلت «الأولاد» سألت. «أهم اولادك؟» لم استطع الاجابة. أسقطت السؤال من حسابى، ولكنى قلت لنفسى آن الآوان أن أنهض من

مكتبي ، وأبحث لها عن الاقراص ، فقد عاودتها نوبة النسيان . . غرقت فى عالم آخر. ثم عادت تسأل «وزوجتك؟ أهى تلك التى تزوجتها منذ سنوات؟ » « ماذا تعنين ، يا اماه ؟ » ردت « معذرة يا بنى ، الم تتزوج غيرها؟» «انها زوجتى الاولى ولم أتزوج غيرها . لماذا هذا التساؤل ؟» قالت « لا تبدو مثلما كانت سابقا » نظرت اليها مستفسرا ، كانت تجوس فى غيبوبة ، وان كانت حاضرة معى بجسمها . لم تكن هنا .. وفد صوتها من خرائب .. تبدو احيانا جميلة ، واحيانا تبدو مشوهة القسمات . تقلبت فى فراشها . ثم غطت بالبطانية الصوف وجهها . من تحت الغطاء سمعتها تتثاءب .. ثم غرقت الغرفة فى صمت مخلص فيما عدا دقات المنبه ، والهمهمات واللمملمات الوافدة من خارج الجدران . . نهضت . ضحكت ، وقالت « الليلة الماضية فعلت بى شيئا مضحكا» رفعت عينى من أوراقى متسائلا . .لكنها لم تكن معى .. ابتسمت ، والقت برأسها الى الخلف على الوسادة .. « قدرنا الله ان نكسب ورقة اليانصيب تلك وسوف نعطى من مكسبها كل الفقراء الذين نعرفهم » صمتت . بعد قليل ، تنهدت وقالت « كلما دق جرس الباب خفق قلبى . وددت ان يكون القادم أحدا يأتى يؤنس وحدتى .. لا أحد يجئ يا بنى . . يبدو من حولى ضباب العزلة .. ان الوحشة تضيق الخناق على عقلى . . ماعدت اذكر من أنا . . وأنت حقا ، من أنت ؟ هل أنت ابنى .. اصدقنى القول .. وحق أمومتى لك . . أم أنك أخى ؟ هل أنت أنور أم تراك اخى الأكبر

غندور ؟ » أوقعت القطة صفيحة القمامة .. راحت تتدحرج على درجات السلم بأحد الأدوار العلوية .ماءت القطة بجزع ، أو ربما بفرح وهى تسمع الصفيحة الواقعة ترتطم بعتبات السلم تباعا . انشد السيفون فى الحمام الملاصق نشيده ، وراح الماء ينسحب ليملأ الخزان للمرة القادمة ، ثم توقف . كل شىء يتوقف ، يندثر ، ويتبلد ، كما لولم يكن قد حدث أصلا .. موسيقى الجاز الآن تملأ هدوء الغرفة .. انها تسليتى وعزائى فى الهدوء والوحشة .. المذياع رفيقى الثانى ، اما رفيقى الأول فهو المصباح على مكتبى . يسكب حبه ضياء على أوراقى . . يكاد يلثم اجفانى .ولم أنسى رفيقى الثالث ذلك القلم الذى أسمع صريره وهو يستجيب لضغطات أصابعى ؟ صيحة من دور علوى .. صوت رجل يقول « قف » ربما لابنه وهو يراجع له دروس الغد . كركرة فى بالوعة الحوض . . وموسيقى الجاز اضحت عاطفية حانية . كيف تستجيب آلة النفخ النحاسية ؟ يتجاوب الكمان مع دقات الطبلة ويتآلف الاثنان مع آلة النفخ التى تذوب فيها انفاس ولهفات ذلك العازف المجهول الذى لم يبق منه سوى النغم المسجل على اسطوانة تدور فى هدوء الليل فى غرفة كبيرة جرداء .. ويفد الينا صوتها دعوة وعزاء وتشجيعا على انتظار الفجر .. الذى لا زال يمشى الهوينا فى بلاد أخرى غير هذه . ها هو البيان قد أقصى الطبلة وراح يبث اشواقه الى آلة نحاسية كفتاة تغازل جنديا راحلا الى ساحة القتال . وربما لن يعود . وفد الصوت الحنون يقول :

اعرف انك ماعدت تحبنى .
واذا لم يكن بامكانك أن تقول ذلك
بالكلمات
فقله بالكمان .
قله لى .
لن أمسك بك .
لن أطالبك أن تعود ؛
لكن قبل أن يجرفنا تيار الحياة
وفى الظلمات نختفى
اعزف لى الكمان
ذكرنى بالأمس .
أكان حلما
لم نعشه قط ،
ذلك الأمس الذى راح ؟
ذكرنى قبل الرحيل
ذكرنى بالأمس .
بنبضات اوتاوك
من قلب كمانك الحزين
غن لى أغنية الأمس الذى يبدو وكأنه لم يكن .

أهى الريح التى تغنى ؟ أم صوت فى أعماقى بالغناء يتعزى ؟ أم هو المذياع فحسب ؟ هبت نسمة باردة كما لو كانت تفد من قبر ولمست كعبي قدمى العاريتين فى الخف الجلدى. من اين اتت ؟ تعالى صوت الكمان، وتقاطرت دقات البيان، كما لو كان مطرا ينهمر فى ليلة شتائية على زجاج شباك، فنسيت أن أبحث لسؤالى عن جواب. وهل له فى هدأة الليل، فى هذه الغرفة التى أجتر فيها عزلتى، من جواب ؟

١٩١٠.٥

١٢

أغنيـــة للسهـــرة

كم هى خداعة، تلك النعومة . تكاد راحتك تلمس ثوبا مخمليا أصفر . وتلك الليونة كم هى خداعة بلدونها . تكاد تغوص أصابعك دون أن تدرك عظما . أما استسلامها فهو النعيم بعينه . هبة أنفاس منك تذروها بعيدا ، وتمضى معك ، إلى أى مدى تريد . تسير معك الهوينا إذا أبطأت ، وتعدو إذا ماغلت مراجلك وأسرعت . تتوقف أينما أردت لها أن تقف . تتصاعد إذا ما يممت شطر السماء ، وتنخسف بك متى انخسفت . طوع بنانك على الدوام هى . تشكل بها أخاديد وكثبانا ، أينما شئت . تكاد تسمع همسها ، بل فحيحها ،

وهى تقول لك « ما أنا سوى ذرة ، وهل تعرف الذرة عن الصحراء شيئا ؟ وهل لها أن تقاوم سيدها وربها الريح فى شىء ؟ »

وقفت على القمة . رأيتك تنتقلين حبة حبة . وفى زحفك تصدرين صوتا ناعما . تعترضين ، وتطوقين ، وتغتالين . فى كل خطوة خيانة وخسة . جسدك الهلامى اللون يتلوى . وفى حركته ينشر الذعر ورجفة الخراب أينما تعقد . تجلبين معاك أيتها الحرباء المهاجرة هديتك من الحسك المسموم والحصى الملتهب . وبهسهستك الخافتة تشقين طريقك . تسبين النفوس . تطبقين على الاعناق ، وتكتمين الانفاس . وفى بحور جفافك الراكدة تغرقين كل غصن هش ، وكل ورقة خضراء بنبضة القلب . . تحوطين شجيرة رفيعة عجفاء ، وتضيقين عليها الخناق . شواهد محسوسة . تمتصين منها الرحيق . لاتستطيعين الأفلات منى والمراوغة . لاتستطيعون الانكار التقطت لك الصور متلبسة . فقط أخشى دسائسك . أنت قادرة على احتواء الجميع . تضعينهم فى جيوبك الفضفاضة الهلالية المظلمة .

أوقفوها . صدوها عنى . أبعدوها . أنها تأكلنى . تنهشنى .

تحاصرنى . تزحف ، وتضيق على الخناق . كنت أكسرها من قبل بطبقة من حنانى . نضب عطائى . بدأت تزحف . سلطت على أنظارها . . ماذا تريد ؟ تحتقرنى ؟ تتربص بى ؟ تختبر صلابتى ؟ تبحث عن مكامن الضعف فى؟ ماذا تريد منى ؟ أنشقق . أوقفوها. أبعدوها عنى . نظراتها تشوينى . أتشقق . تفتتنى . وحتى إذا أدارت الظهر ، تلفتت نحوى ونظرت . ماذا تنظر ؟ إذا سألوها ، تقول « لاشىء » تهز كتفيها ، وتقول « إنى أنظر فحسب » لكنها فى الحقيقة تتربص . ترقب . لا أحد يصدها . رياح جافة تهب . غيوم بلا مطر . مرة واحدة فتحت فمها . ارتنى سلة الخبز على ذراعها ، وقالت « فارغة . أنظر » قلبتهـا على فوهتها وقالت « لاشىء . أنظر » نظراتها أدانة ، تحد ، ولارحمة . تدفننى . أبذل جهدا ، كى أصمد ، اللوم ليس على . جردتنى من قدرتى . عرتنى . أبعدى عنى . بداخلى شجرة ملح زرعت . تتحرك الكثبان تتحرك . تمد بعد نظراتها إلى ذراعيها . نحيلين ، شاحبين ، مخاتلين . أطلب عونا . إبنوا من حولى سدا . إنى أتبخر . أين أنت ، أيتها العذراء ؟ أخشى هذه الخطوط الثعبانية الملتوية . هذه التجاعيد التى تتنقل بسرعة . لا يغرنك نعومة الملمس . إلى بأنبوب ، بمكثف . القوا إلى بطوق نجاة ، حزام أخضر . إنى فى أحضان الحدباء أغرق. أدفن فى قفصها الصدرى وجهى . ليس فى الجوف رحيق بل حطب أعجف ، وخميلة من شجر الشوك ، جفاف ، جفاف ، فى الحلق

جفاف ، على الجلد جفاف ، ق القلب جفاف . الأعماق أضحت قشرة . اختنقت البذرة . أين البذرة ؟

قال أحد الجالسين بالمقهى « أنه يكلم أمرأته » وقال جاره « بل أمه » وقال آخر « بل ربه » ورابع قال « أنه يكلم نفسه » جرى خامس ، وأخذ أسفنجة ، غمسها فى مداد ، وجعلها على قصبة ، وسقاه منها . وشرع أخر حربته ، وهم أن يطعنه رأفة به فى جنبه . فقالوا له « اتركه لنسمع ، سئمنا المواويل . ما أعذب هذه الشكوى . هذا الأنين الشرقى يملأ القلب شجنا . » وأعد صاحب المقهى أشرطته ليسجل أغنية للسهرة .

لن أتركك على هواك ، أيتها القاسية . هربا منك اختبأنا عند الجذور .حفرنا جحورا تحت السطح . أستضافتنا السحالى والقوارض وكانت أرحم منك .سرنا فى سراديب طويلة مع العناكب والعقارب وكانت أكرم منك . كانت بعض الجحور مبطنة بالحرير ، ياصاحبة البشرة التى علاها القشف . وكلما أزددت جفافا أوغلنا متعمقين ، وحفرنا ، لكننا ماحطمنا مثلك جذرا ولا كسرنا عودا .

رحنا نتلوى سابحين فى الرمال كالسمكة . ونوغل فى نزولنا كغواصة هربا من شرور عداوتك. وكى نفلت من الخطر نقضى الساعات جاثمين فى أماكنا حتى لا تتبينى أين نحن . أضحينا مخلوقات ليلية تنشط فى الظلام ، بعد أن يسلبك النوم قوتك ، عندما تغمضين جفنيك ، فتحجبين عنا وقدة مقلتك . وبآذاننا الطويلة رحنا نكشف الفرائس الصغيرة التى تعدو أثناء الليل بسرعة. تعلمنا كيف نعيش عجافا ،وأن نقاوم القحط ونغالبه. الفنا الصيام . أنه لم يكتب علينا فقد ارتضيناه ، والتحمت فى ذلك بالضرورة ارادتنا . سيقاننا تمتص الصدمات حين القفز من صخرة إلى صخرة. واكفنا ماعادات تتسلخ ونحن نمضى فى التسلق. أصبحنا لانشرب ، وتشبعت أكوابنا بالملح ، حتى صرنا كربهى المذاق ، فما عاد يطمع فينا أحد ، أستغنينا عن الغدد وابطلنا وظائف الامعاء . ليس ثمة ماهو صعب من أجل نوال المرام . ليس ثمة صعب ، فلكل داء دواء. قد تجدون بقايانا هنا أو هناك بعد سنوات وسنوات ، وسوف تقولون أكان بالامكان أن تقوم هنا حياة ؟ وستهمس بقايانا المتحجرة « ليس ثمة صعاب » ستقولون « كل هذه الصحراوات؟ » وسنهمس فى صمت قائلين « هنا وجدت غابات ، ومصب نهر كبير ، سبحت فيه تماسيح أفترست كثيرا من الملاحين الجوعى وصائدى الاسماك . »

من كان مسئولا ؟ من ؟ لماذا لم يعد ينزل المطر ؟ لماذا ؟ البقاء ، البقاء ، فلنصارع من أجله ، تأجيل الموت يوما أو حتى ساعة أمر جدير أن تراق فى سبيله دماء . الفناء شيء مخيف . لابد أن نبقى ، ولو بين هلاك وهلاك نتأرجح ، ونصرخ فى هذه الأثناء بأننا خالدون . قليل من الماء يسقى بساتين زيتون وبرتقال وكروم . وترتوى . تدب الحمرة فى الخدود ، وتمتلىء الشفاه ، وتكتسى العظام باللحم . وتتنفس المسام . وبعد ؟ نفكر فى الجنس . لابد من البقاء . لابد أن نترك خلفاء ، أن نطبع على الصخر خربشات . فإن عجزنا أغرقنا العقل فى لجة من الخمور كى ننسى أنه ذات يوم سيطلع نهار ولن نكون هنا ، ولن نراه . سيمتد ليلنا أبدا ، بينما يطلع على الجبال والوديان نهار تلو نهار ، ونحن بلا نهار . وددنا لو كنا شجرة زيتون أو عنقود عنب يتدلى من كرمة ، أو حبة برتقال فى ذلك البستان السابح فى الضياء . ووددنا لو اصبحنا غابة صبار تغطى وجه الصحراء . نتوق إلى حياة أكثر ريا ، فلا نخشى الجفاف ، طعمه على الشفاه والحلوق وخزات خناجر وشقوق وجروح . قشف هو . وددنا لو لم نتبخر ، لو التحفنا بغطاء نباتى ، ولم يلق بنا فى قبور . تنهمر دموعنا لكنها قصيرة الأمد ، فلا تلبث أن تنضب المقلات ، وتبحث النفس عند الجذور الدفينة عن ذخائر الماء ، كى تمضى تحيا لحظة بعد لحظة ، وتظهر أمام الآخرين بمظهر الاسوياء ، بينما الكل يعرف ويتناسى أن الضمر

متعذر الاصلاح . وأن الجدب ستتنا ومستقبلنا . ولنقتتل الآن من أجل لحظة أرتواء ، فلنرشفها ونمتصها. فليستنزف كل منا الآخر من أجل هذه اللحظة المباركة ، فالجفاف مهول . الجفاف موت ، وموت بموت فلنقتتل .

أصبحت مستحيلة . جسدك غطاه الشوك، ونبتت لك أنياب ومخالب . على الرغم من ذلك ظللت أحبك . أريد أن أقترب منك ، أن أضمك بين ذراعى ، ولو كان فى ذلك موتى، لكنك حتى هذه الامنية حرمتنى منها .

راحت عيناك تنفثان لهبا، عنادا وكراهية ، بغير ماسبب . أنزويت بعيدا . وضعت العراقيل فى طريقى اليك ، خربت الجسور ، سممت الآبار ، بثثت فى الأرض الألغام ، ورحت تتهميننى أننى ألاحقك . واشهر بك. وأنا ماقصدت ألا أن آخذك بين ذراعى ، وليدم ثوبك الشوكى جسدى . ولأمت بعد قليل من شفتيك الحارقتين. ولكن حتى الموت إلى جوارك أنكرته على. ولأمت كمدا ، محروما ، حائرا ، مهددا فى عقلى ، فلا زالت تعصف به ريح تعوى، وتسأل لماذا كل هذا ؟ لماذا ؟ أفى أعماقك دمل ندم يرشق بالاشواك جسدك؟ لم يبق لى الاأن أصلى من أجل خلاصك ، ففى ذلك، ياصداحة الصحراء ، خلاصى .

أكان الأمر خطأى؟ خيم التجهم فى الآونة الأخيرة. تزايدت أحتمالات الجفاف . من المستحيل فى الوقت الحاضر التكهن . لاشيء يبشر بالخير . فى الأفق كوارث حقيقية . من الميسور الرد بالنفى ؛ ولكن على أن أقاوم حصار الحسك ، ومضيت أتحمل الضغوط المصاحبة .

أندثرت كثير من الأشياء. كانت عزيزة فى وقت من الأوقات. غاصت ونسيت. سقطت برفق وهوان ، ولم تحدث صوتا . أشياء صغيرة فى حد ذاتها ؛ لكنها كانت بالنسبة لنا عالية المقام . راحت تقبع هناك مطوية مخفية . فى صمت ، ظلت شاهدة على أيام مضت كانت تتمتع بالرخاء ، وتحظى بالحب ؛ من أجلها ضحينا بكل مرتخص وغال . ماذا بقى منها ؟ نقوش على العظام ، وعلى الصخر سحجات. تصاوير مطمورة ، تنتظر بصبر من يكتشفها. يزيل من عليها الرماد ، ويرجع بها إلى أيام خوال كانت بالسعد والفرحة تختال . نصوص تنم عن معارف غامرة ، وثقافات مثل عيون التنانين شاسعة . فى الحدب ذكريات ميتة من ماض ماعاد له وجود ، فقد هلك حتى أولئك الذين أحتفظوا به فى الذكريات .

الأسوار ممتدة توازى الأفق ، والأبواب متداعية . هبات الريح داخله منها وخارجة ، مثلما من محجرى جمجمة . عشب

كثيف عال سرت فيه النار ذات يوم ، فظلت منه بقايا متفحمة . والرمال من كل الاتجاهات زاحفة متلوية ، ثعابين صفراء سارحة. بستان من أجنحة الغربان وحدقات البوم ومخالب الصقور الجارحة . إلى بالصمغ ، أثبت أطلال الذكريات الباقية فى الحقل المهجور بين أحضان أشجار السنط والحشائش الطفيلية النامية .

عاجزة ، غير قادرة على إستعادة شيء مما فقد ، إستخدمت الساحرة الشمطاء النار بلا تبصر ، فشبت فى جدائلها الشعثاء وخرقها البالية ، وتركتها وسط الخلاء الجدب خيالا يخيف طيورا لاوجود لها ، ويصدها عن محاصيل غائبة . تأتى الابقار ، والنظرات فى عونها حزينة ساهمة ، ثم ترحل وأفواهها خاوية . تستدير عند حافة الحقل وتنظر إلى الساحرة المتفحمة ، تهش بذيلها الهوام عن بطونها الضامرة ، وإلى حظائرها المهدمة تعود جائعة .

مزيد من الانغراس يحـــل أزمتنا . . وبذلك تتـــوافر منا سلالات جديدة . وقد بدأنا نتوسع فى ممارسة الانغراس لكن مشكلات أخرى أخذت تعترض سبيلنا . نصحنا أن نتأقلم فى طريقنا إلى الهاوية وإلا نجزع لمرآها أو حتى لفكرتها ، فالأفضل كما يقولون أن تزرع شجرة حتى لو كانت نهاية العالم غدا آتية .

نحن فى طريقنا إلى زوال ومع ذلك مطلوب من أغصاننا أن تمايل ومن أوراقنا أن تغنى بما فى القلب من أغنيات، بينما اللحاء عن جذوعنا تنزع وتعرضنا لشتى الحروق والتقيحات المؤلمة، وفى عروقنا الرحيق نضب أو كاد. تسمع قرقعة عظامنا فى المدفئات، فلا وقت للغناء بل للآهات. وللغناء وقت كما تعلمون، ووقت أخر للآهات.

نتحول إلى دخان. كل منا أضحى ذرة فى سحابة دخان. هذا هو البديل الذى كى ننجو تحولنا اليه. ولكنه تحول أفقدنا الكيان والاصالة والشخصية. فماعدنا كما كنا. وليتشدق المتشدقون بأن المهم ليس سوى الوجـــود بالمقام الأول. لقد خفضنا تخفيضا جوهريا، وعلى نطاق واسع. وما عاد أحد يهتم بنا كما كان فى سالف الأزمان. ضاعت من الناس الحكمة. والحياة متجهة إلى الانهيار. ولهذا الانهيار منطق خاص. فهو يحدث فى هدوء ودون أن يراه أحد. لاتسل عن ذلك غيرنا، فهؤلاء لاينفذ بصرهم إلى ما هو أبعد من اللحاء، أما نحن العجائز المسنون فى القافلة التى تسير إلى الهاوية ومع ذلك تتشبث وتنشب جذورها مهما كان إنحدار السفح، فنعرف أن انهيارنا مؤكد وهو بالمقام الأول إنهيار داخلى.

ينزع منا الجلد. ينتابنا الهلع. وناهيك عن الألم. ولكن نزع اللحاء أفضل على أى حال من العدم. كلنا نصارع العدم. الحب مثل الكراهية صراع ضد العدم. نحن من أجل العدم واليه، وبه

أيضا نعيش . التجارة كلها والصناعة عندنا محورها العدم . توضع الخطط الخمسينية والمؤية من أجل مجابهة العدم . وما أن نحدق النظر اليه حتى يرشفنا ويجعلنا قطعة منه . من كيانه الضخم المهيب أصبحت منتجات العدم سلعا تباع بأبخس الأثمان وأغلاها أيضا . أصبحت تصدر وتستورد . وازاء الضغوط أضطر الكثيرون إلى السطو ، وتكونت فرق لمقاومة النهب ، ولممارسته تحت ستار المقاومة أيضا . تنفيذ القوانين لايجدى كثيرا ، هنا على السفح شديد الانحدار ، حيث تتدحرج نصوص القانون ، وتستقر فى الهاوية .

الرحلة من أجل البقاء أصبحت تستغرق العمر كله . نواجه فيها التآكل أو العنف أو التدهور أو كل هذا معا . خرجنا من أجل ذلك فرادى وقوافل واتسعت الدائرة بعد أن كنا مجرد أشرطة متفرقة ، فصرنا نحرق البعض منا حتى يتسنى للآخرين البقاء ، ومواصلة السير فى القافلة . يضيع أكثر من ثلثنا على المنحدرات وفى المغارات الضيقة. نختفى الآن بسرعة كلما دفعنا إلى المنحدرات وحواف الهاوية . نصعد المدرجات ونخشى أن نستأصل، فنهدم كل ماوراءنا، وماعدنا بعد ذلك نعرف كيف سنعود. من حيث أتينا أم أن طريقنا صار بلا رجعة ؟ متى يدرك الجميع ذلك ؟ تتضاءل فرصنا ، وتهدد فينا الصلاحية ، وتزداد الرواسب فى طريقنا ، كلما تساقط بعضنا ، وتقل قدرتنا على الاندفاع فنفيض على الجانبين ونتبدد فى هجير البادية .

١٢

التمساح ذو الألف رأس

يا أيها الغول الذى أهلكنى، ثم عاد فخلصنى ، بك ألوذ، ومنك انتظر . اسمع صوتك القاسى يقول «عما تلوذ؟ وماذا تنتظر؟ الم أكن لك خيبة أمل؟» وتسألنى «تشتاق ان تزيح النقاب عن وجهى المضمر؟ اتنسى عذابك؟» (قالت «انا شيء خرج عن متناول يدك. اليس بامكانك ان تلفظنى؟ هل تحتلمنى؟ هل تغفر لى ما الحقته بك من ضرر؟ هل ينصلح منك ومنى ما انكسر؟») «انت لست سجين الساعات فحسب بل أنت كائن غير ما كنت بالأمس . الماضى راح واندثر ، لا تستطيع ان تحيا فيه ، وهل تحيا بين اموات

وخرائب ؟ ليس لك الا لحظتك الحاضرة . تشبث بها جيدا ، فهى تفلت منك بأسرع مما تتوقع » (قالت «معك كنت أحيا ») لم تترك لك الاذكريات لا تساوى فى سوق الحياة شيئا . وهل يحيا العقلاء على خواء ؟ وهل تصلح تطلعات الأمس لغير الأمس ؟ (قالت «ماعدت أصلح لك») أنت ابن اليوم . خرجت من رحم مات لحظة ولادتك . وحاضرك رحم يلفظك ويموت أيضا . هل بامكانك ان تستحوذ على موضوع رغبتك ؟ انك فى كل لحظة تموت ، أيها المسكين ياابن الاموات ، انت تموت . انك اليوم لست ما ستكونه فى الغد . الشمعة تتضاءل كل لحظة ، حتى وهى تضىء . «الم تتغير فى هذه الحظة عنك فى اللحظة التى سبقتها ؟ ستتغير فى اللحظة التى تليها اذن ، وستمضى فى التغير كل لحظة آتية » . (قال «ولا تحب العالم ، ولا شيئا ممافى هذا العالم ») كنت بالأمس اتصفح الخطابات . وقلبت الدبلة الذهبية بين انامل «انت تصنع اشياء وانا أهدمها . على الرمال تبنى قصورا . انزع صورها من على الحوائط ،ومن ذاكرتك احرقها ، ولا تبق منها سوى حفنة من الرماد » الرماد الى الرماد يعود . والتراب الى التراب يصير . الله اعطى . الله يأخذ .(قال القناع الأصفر « تزوج . الذى خلقها ألم يخلق غيرها؟ غدا تنساها . انجب لولادا سد بهم عين الشمس » . سالت «وهل انسى صغيرتى؟ » قال القناع « انس انك انجبتها » . مستنكرا سألت « وانسى اننى قضيت اسعد ايامى احملها بين ذراعى ، حتى تسند رأسها على كتفى

وتغيب فى النوم ؟ ») « وولدت انسانا جديدا ، شوهتك عجلتى التى تدوسك منطاقة فى طريقها . من انا؟ تعود فتسأل من أنا ؟ وانى اجيبك بأن اسألك وهل تجهل حقا من انا ؟ أم تتجاهل جرعتى المسمومة التى تتعاطاها كل يوم حتى اضحت جزءا من وجودك ؟ وجودك ؟ بل الأصدق ان نقول مماتك . سلسلة متلاحقة من التبدل أنت » (قالت « انت متقلب ») «وهل هناك حقيقة أخرى غير هذه ؟ انضمام انت إلى الماضى . وفى الوقت ذاته انت انسكاب الى قارورة المستقبل الذى لم يتخذ سائله لونا بعد . وهل يمكن حصر مضمون اللحظة المقبلة الا متى وقعت ، واتخذت لها تاريخا ، أى الا اذا اتخذت مكانا فى الماضى ؟ ما الحلوى من الماضى ؟ ماذا يبقى منه ؟ بل ماذا يبقى من الحاضر ؟ اذا كان ثمة امل ، أو نجاة ففى المستقبل، ولكن ما أن تقترب من المستقبل وتدخل فى هذا الحيز الضبابى حتى تتبين انه بدوره لا يساوى شيئا ، فما أن تعاينه حتى يبدو لك انه بدوره ماض ، وان العجينة كلها واحدة . بخار متبدد فى فراغ » مهما كان الامر ، فانى قادر على التذكر ، وبذلك انقل ماضى الى حاضرى وأجعله يعيش لحظة الحاضر ايضا . لا أحد يقوى على حرمانى من ذاكرتى « تقول انك قادر على التذكر وتعتقد يا ابن الأموات انك بالذاكرة تفلت من الفناء وتتجاوزه ؟ انت كمن يضرب الهواء بقبضته» أتوهم أنى سأعود الى البيت فأجدها بانتظارى . اتوهم انى سأشرب قهوة الساعة الخامسة معها . الوهم

تجسم . سأربت على شعرها واقبل شفتيها قبل ان أخرج . وبالليل سأضمها بين ذراعي واسند رأسي على الوسادة الى جوار رأسها . تنظر الى وانظر اليها ثم الى وديان النوم والاحلام نبحر «الذاكرة ! الذاكرة ! يالها من سراب هذه الذاكرة . لا ترفع صوتك معترضا عندما يصاب كلبك بالسعار، فأنت أول من يطلق عليه الرصاص رأفة به » .

١٤

هل ترد إلى أمسي ؟

الى ماتريد أن توصلنى ؟ ان انكر الخير ؟ ان انكر الجمال ؟ أو على الأقل ان اقول الشر والخير سيان ، والدمامة والجمال سيان ، مادمت تهيل التراب على كل شئ على حد سواء ، وتطأ قدماك الثقيلتان الخشنتان كل شيء فى خطواتك التى تسحق ولا تتوقف ، ولا تعود أبدا الى الوراء ؟

هذا ما لن يكون . لن انكر الخير..لن أتجاهل الجمال . وسأظل مرتبطا بكل ما هو خير وجميل ، مهما كان سحقك له . وافضل أن تسحقنى جميلا خيرا من ان تسحقنى دميما سيئا . قد تقول

هذه ليست مشكلتك، وليس من شأنك انت، وأقول أنا فى مرارة واصرار فليكن، سأجعل ذلك مشكلتى انا فحسب. سيكون ذلك شأنى وحدى. سأحاول أن أقيم بوسائلى القاصرة صرحا لكل خير وجميل. ولتكن الذكرى على مر الاجيال باقية. هذه الذكرى بذرة لشجرة الخلود الصامدة الى حين، لكنها على أى حال صامدة.

الجمال؟ الخير؟ اطلقت يا ابن الأموات أكذوبة وصدقتها. ماذا عن الجوع والمرض والنتانة والهلاك؟

الشيء الذى لم يفهموه، ولن يستطيعوا ان يفهموه، اننى ظللت أحب طيفا. مكثت مرتبطا بذكرى، بعينين واسعتين معاتبتين، استغنيت بهما عن كل عيون الدنيا، أخذت حلمى، وأغلقت بابى علينا. وفى الصمت والعزلة رحت اذوى. لكننى عشت حلمى. ظللت وفيا لمن كانت لى ذات يوم واقعا حلوا، واضحت فى ليل الحياة الطويل معاناة وبهجة وأملا منسحقا. فليسخر منى الساخرون، وليعشقوا اجسادا، وليضموا بين اذرعتهم طينا وعرقا وترابا، اما انا فذراعاى على الدوام خاويان، لأننى عندما اضمها لا أجد

بينها سوى شعاع نحيل من نجم شاحب. ولكن بغير ذلك لا أجد لحياتى معنى . الأمر شاق . اعترف بذلك . لكنه فخارى ، ومصدر زهوى انه بالنسبة للآخرين مستحيل ، وقد كنت على الدوام اعشق المستحيل ، ولا ارضى بغيره بديلا .

أتعرف ما نحن بحاجة اليه ؟ نحن بحاجة إلى رحمة لا ذبيحة .

تريد أن تتكيف ، لا تمكنك المرأة القديمة من ذلك . أضحت اطلالا مندثرة . واذا بك عند الحافة الخطرة ، الحافة المزعزعة تجذبني . غامضة ، مؤلمة ، معطاءة . ويتفتح قلبك ، وتزيح بتنهيدة عميقة الثقل القديم الرازح على صدرك . بدأت تتحرر . تنفض تراب الملل عن كيانك الذى اوشك أن يتلف، وتجلو عنه الصدأ . تحاول ان تتلاقى معى أنا المجهولة التى لم تألفنى بعد ؛ وتتردد ، فالولاء الوبيل للعجوز القديمة يمضى يشل انتباهك لى . ويبقيك غير مستعد ان تواجه تجربة جديدة خشية ان تتعرض للألم . تفضل الفراش القديم البارد على الاحضان الغريبة الملتهبة . تؤثر ان تلصق شفتيك بعظام جمجمة تآكلت عليها البشرة من ان

ترشف الرضاب من الثغر الدافىء المجهول . انا لازلت بالنسبة لك لغزا ، غموضا ، خطرا ، وجها وراء نقاب ، فخا منصوبا ومستترا. أما هي فحفرة نتنة تعرف كل أرجائها ، وألفت كل انخرتها الزخمة. اما العطور التي تفوح مني انا – وان كانت تذكرك بجنة موعودة سبق ان طردت منها – فانك لا تأمن الى شذاها . قد تكون مخدرا ، ينزع عنك مقاومتك ، ليلقي بك الى أنياب شرسة ، لكنك يا صاحبي ، الم تكن على الدوام مفترسا ؟ صحت تطلب الحبوب «اين النوفاريل؟» قال «لم يعد بالصيدليات نوفاريل» سألت جزعا «وماذا سأفعل ؟ قال لك «هناك التريبتيزول» صحت جزعا «اذن ، الى بالتريبتيزول ، الى بأى شيء كى أتحمل الى» .

تحاول التوفيق بين حواسك وبيني. تعاود المحاولة وتعاود. ينتابك العذاب لأنك تخفق . ولكن اذا نجحت ، اتعرف ما الثمن ؟ انك دفعته من قبل . تمضى تخفق. انت محظوظ اذا تخفق. اتعرف لماذا ؟ حتى لا تقع فريسة للضجر ينهش ساعاتك . لكنك تمضى تندب حظك ، لأنك تخفق . فالرتابة اكثر المساوىء احتمالا ، والضجر متلهف اليه ، تمضى تلوكه وتجتره . لكنك فنان – أتنسى ذلك ؟ – كتب عليك ان تخفق ، كما لو كان الأخفاق من فعلك ،

فتبدو الحياة مع هذا الاختناق متعة، حتى قدرها لا تقدرها . تحول الخطر الى لعبة . وداعا للرتابة اذن ، ومرحبا بالمتعة . اتعرف ما المتعة؟ ان تشعر كل لحظة انك فى خطر : حتى يضحى القلق آفتك ، وخلاصك وقدرك . تمضى تقضم أظافرك مثل القرود . انت لست مثل كل البشر، هؤلاء هشيم اعجف، وأنت —ماانت؟— شجرة صبار فى تيه مقفر .

خانت امرأتك الثقة التى أوليتها، فأضحيت لى ضحية . لم تعد تجنبك الشمطاء مطارحتى الهوى . فى مواجهتى تشحذ حواسك . أصبحت رجلا . تتشربنى محموما يقظا، وحتى تتوصل الى احلالى محل العجفاء ، بعد أن ودعتها بالبكاء والعويل ، تحاول ان تفض لغزى ، وتزيح النقاب عن وجهى . تحاول أن تفرغنى أنا المجهولة الغامضة من الخطر الذى يتهددك ، حتى تألفنى . ومن ثم تفرغنى من جمالى أنا بدورى ، لأصبح امرأة قديمة حلت محل امرأة أقدم . تريد أن تنقلنى من المستقبل الى الماضى ، وترتكب بللك اكبر الاخطاء اذ تتعجل اللحظة الحاضرة ان تكر وتولى . فأنت تجردنى من أعز ما أملك، من قسوتى وفتنتى . لكننى لا أخافك . اتحداك والتهمك . أمتصك مثلما تمتصنى — انظر الى الثلج الذى على

شعرك ؟ – اقف امامك عارية بكل ما ڤى من قسوة وفتنة . اقف امامك وأقاومك ، ولن تنالنى . الى احبك .

أقف عزلاء غير مفهومة . أحلام يقظة آنا ؟ تحبنى لأنك تجهلنى . يهشك فضول غريزى أن تسبر اغوار انوثتى؟ لكننى سأقاومك . سامضى اخفى عنك الجوهر ، وان كنت اشع امامك أبهر . سأمضى اشيح عنك بوجهى . واذا أهبت بى قائلا « لا تكونى معقدة . وفرى على جهدى » وتوسلت قائلا « الحياة أقصر من أن نضيعها » فسأصمت وتقول عيناى « فى قسوتى فتنتى وسحرى ، فانت ايها الفنان لست ممن يحبون امرأة سهلة ، أو ترضى بمتعة ميسرة » .

اقول لك هى نعمة وفى الآن ذاته نقمة . لن تظفر بها الا لحظة قصيرة عابرة ، وذلك اذا ما حطمت بداخلك المعمل العامر بالسموم والأحماض الكاوية ، وافلت من القبضة المحكمة . ولن يتأتى ذلك إلا اذا بلغت الذاكرة مرحلة من الضعف الشديد ، وراحت تحتضر . اغتنم لحظة الاحتضار هذه ، فالذاكرة كالعنقاء ، لا تلبث أن تدب فيها الحياة ، وتعود الى سابق ضراوتها واستبدادها .

١٥

بعيداً عن ظلال الحب

يعطونك إحساسا كاذبا بالأهمية . يقذفونك عاليا ، فإذا سقطت ولجأت إلى أهميتك تحتمى بها، نظر اليك من حولك ببرود. فإذا ما فتح أحدهم فمه فليقول لك « وهل لأهميتك أهمية هنا ، حيث ترديت ؟ كلنا أعطينا يوما إحساسا بأهمية كاذبة . تحاول الإستقرار . تبوء بالفشل، وتلعن اللحظة التى أنجبت فيها ، تتوق إلى نظرة أو لمسة أو بادرة فهم ، فلا تلقى شيئا من ذلك . العملية كلها أشبه بإصلاح سيارة يتكرر عطلها . لم تكن تحس إنك على مايرام إلى جانبها ، لكنك كنت حرا أن تفكر فى عديد من

الأشياء الأخرى . ولم يكن ذلك بالأمر الذى يستهان به . الحياة إناء يجب أن يملأ ، وبعض الناس يملأونه ماء قذرا . أفكر فى الأشياء القديمة البالية . أنتقل من القريب إلى البعيد . أنزل درجات تنحدر إلى أغوار بحر مظلم لاأجد له قرار . شىء دنس . جسد مستباح يتقيأ أجسادا أخرى . وددت مخلصا ألا تكون كل علاقة عطنا لامفر منه سوى الهرب . أجد نفسى على الدوام أنزل الدرجات التى تنحدر بى . الخلاص ! الخلاص ! إنى أغرق ! أقطع الروابط بالآخرين ، وأنفرد بالنفس فى صمت مطبق . أنا وأنت :منفى كل منا عن الآخر . عن أى منفى أتحدث ؟ أجوب مثلك بلاهدف فى حاضر لايعدو أن يكون حلما زخما قاتما ، يختلط فيه الماضى والمستقبل — أنت الماضى والمستقبل — بشكل مؤرق ويضحى الحاضر بينهما غريقا دائب التشبث بكل ماتطوله يداه المتشنجتان المتخبطتان . لو أستقر أحدنا لإستقر الآخر واسترحنا . لكنا دائبا الترحال تائهان. الرعب وحده يقرب بيننا ، والجوع فى الاحشاء . بلحظة واحدة لا أتمتع ولا أنت . هات إلى أقاصى الأرض صباحا ، وإلى نهاية العالم فى المساء . البس القناع ، لا للتجميل والأناقة . — غير معقول ؟ — بل لمنع الاتصال . أنت بلا عمر ، ولا غاية ، ولا ذاكرة ، وأنا أيضا . أهى مرآة تنظر فيها إلى نفسك ؟ لاتخدعك الصورة المرتسمة أمامك ، ولاتقل لاأعرف أحدا بهذا الوجه . لاتثق بالمرآة . إنها تنصب الشراك دون أن ينتابك الشك فيها . تظن أن

ثمة خطأ ، فتريد أن تبدى لما يحدث عذراً ، وتقول أنه لست أنت ذلك الذى ينظر اليك متعجبا . وعندئذ أرفع أنا الذى فى المرآة – وقد رأيت عذابك يكبر – يدى مواسيا . تخفى التجاعيد الكثيرة ، فألبس وجهى الشبابى . ترشونى بالأحلام ، وأرشوك بأمان زائفة ، موهما أياك أن العتمة لم تخدعك ، ولا أعمى الضوء القوى بصيرتك ، كل ما هناك أن الأوثان التى تقيمها المرايا أمام ناظريك هى التى تخدعك ، حتى أنك ماعدت تستطيع أن تتبين بوضوح خلف التراب والشروخ الغائرة الوجه الحقيقى لذلك العجوز الذى يواجهك . لاتثق ، لكن لاتخدع نفسك ولاتلق اللوم على المرآة الآثمة . تحاول الخروج ؟ تبحث عن تعاطف . تضحى بالجوهر . تنسى أنه ليس بإمكان أحد أن يفهمك . ويسير بك أخفاقك إلى السؤال . هل ثمة خطيئة ؟ خطيئة ارتكبتها ذات يوم ؟ وعلقت بك إلى الأبد أدرانها؟ أهى لعنة ؟ من الذى لعننى؟ أهو أبى؟ أهى أمى؟ أم أحد قبلهما؟ تحاول أن تتطهر . تطلب الغفران عن أثم لم ترتكبه ، عن لعنة الصقت بك جبرا ، لكن لنفترض أننا تبنا ؟ هل سيتبدل حالنا ؟ الن نمضى نغوص فى الحمأة ؟ فلنحاول أن ننسى . لكن النسيان نعمة لاتمنح لمن حلت بهم مثلنا اللعنة . النسيان يعطى لمن هم ليسوا بحاجة اليه ، وما أحوجنا . أسألك مانهاية الليل ؟ فكر . ليل آخر ؟ فلندع كل ذلك ليهدأ بالنا ، ولننصرف الآن إلى أمور حياتنا ، إلى الأشياء الصغيرة التى تحيا

معنا ونموت ، ومن أجلها أيضا نحيا ونموت نستفسر عن كراسة، عن معطف ، عن قلم ، عن دواجة ، عن ممحاة ، عن مفتاح ، عن حقيبة ، عن وراقة . أتذكرين هذه الأشياء ؟ أين تركناها ؟ أرجوك تذكرى واريحينى . أصبح الهدف من تجوالنا استعادة هذه الأشياء المهملة . تركناها فى مكان ما . أكان الأمر حلما ؟ ألم تمسك أيدينا بهذه الأشياء يوما ؟ لابد أننا نسيناها ، أنت على الدوام تنسى ، تركناها سهوا هنا أو هناك، فى إحدى الحانات أو الفنادق أو المواخير التى أرتدناها، أو ربما تحت السرير حيث نلقى ما اتسخ من ثيابنا ،أو على قارعة الطريق ونحن ننتظر تاكسيا ، أو فى إحدى المحطات ، أو فى الفضاء الخارجى . ربما لازالت هناك معلقة تنتظر أن نمد أيدينا ونمسك بها. أنها فى مكان ما ، ولكن أى مكان هذا ؟ نحن لانعرف الأمكنة . نسينا أين كنا ساعة أن تشاجرنا ، وساعة أن عدنا نلتصق من شدة الرعب ببعضنا . لايعرف أحدنا الآخر ، لانعرف أحدا ،من أنت ؟ أجبنى ، لاتعرف من أنت ؟ ربما تعرف وتخادعنى ،إلى أن تتمكن منى ، وتسدد لى الطعنة . إننى أنتظرها . أصبحت بصبر ويقين أنتظرها . من الجميع أنتظرها . وعلى الأخص من المقربين ، من أحب الناس أنتظرها ، بل أننى أفتح صدرى وأقول إضربوا هنا . لا أريدها فى ظهرى . هذا فحسب ما أتمناه ، ألا تكون الطعنة المتوقعة فى ظهرى . وحتى أجنب أقرب المقربين هذه الطعنة ، صوبت الركلات إلى إبنى

وابنتى ، دست عليهما ، وصرخت أطردهما « أغربا عن وجهى .
أغربا عن وجهى » إننى أرفض أن تكون الطعنة من أحدكما .
كفانى الطعنة التى سددتها هى — أقصد أنت — أشفق عليكما
وعلى نفسى . أنك تجزع من الأبوة . أفضل النفى الذاتى . يستحق
الانسان أكثر من مرثية . مابيننا ، أنا وأنت ، أغنية حب حزينة .
أتشبث بك وتتشبث بى ، ولايعرف كل منا من هو ، ومن الآخر .
من أنت ، ياقشة النجاة ؟ لا إجابة ؟ ماذا وراء القناع ؟ قناع آخر ؟
آن الأوان أن تخرجى أيتها المرأة الشريرة من داخلى . هبط الليل .
أخرجى . آن الأوان أن نفترق . وصل طريقنا إلى النهاية . آن للحوار
أن ينتهى ، آن الأوان أن يختزل . ماعاد الوضع يسمح بغير صوت
واحد . سوف يكون صوتى أنا . ها أنا أصوب اليك الطعنة ،
قبل أن تصوبها إلى أنت ، أو ربما تكون أنت الذى صوبت طعنتك ،
ولست أنا سوى الصرخة . صوت واحد يتحدث . صوت من أنا ؟
صوت واهن لايعتريه الكلل ، صدى من أنا ؟ صوت يمضى
متحدثا عن شقاء ما عادله وجود ، وهل كان لشىء وجود يوما ؟

هل لازال لدى ما أعطيه؟

لن أحدثك طويلا عنى . يقولون مهرى غال . وها أنا أقبل عليك ، فهل تدفع؟ سأكلفك كثيرا ؟ لاتبتئس . قد أوفر لك قيما بعد مايعوضك عن مهرى . أنك تدفع ثمنا لكل شىء ، أفلا تدفع ثمنا لسعادتك ؟ لن أبتغى منك أن تصير تابعا ، ولا أن تنتهج منهجا فى الحياة لاحيدة لك عنه . سر فى البيت حافيا إذا أردت . لن أقول لك لائمة « البس الشبشب » لن أقول لك « لاتغمس أصابعك فى فى صفحة الطعام كجلف » ستكون حرا ، على شريطة واحدة ، أن تهبنى نفسك ، أما بعد ذلك فكل شىء مباح ، ومتاح ، فى

هذه الدنيا ، وفى الدنيا الأخرى أيضا . من يدرى ؟

شيء واحد قد يحدث ، شيء غير ذى بال ، هو أنه لن تجبر على ان تنهى حياتك معى بسرعة . ستمضى تقول غدا سأنهيها ، غدا سيكون لى شأن آخر معها . غدا ، غدا ، ولن يأتى هذا الغد الذى يضع نهاية لكل شيء ، أو إن شئت الدقة، بداية لكل شيء . أنك لاتعرف ماذا ستكون حياتك معى قبل أن تفرغ منها ، فلقائى بك ليس بداية بل امتداد . حسبك أنى أنبثق فى مخيلتك دوما على صور شتى ، نباتية أحيانا ، وحيوانية أحيانا أخرى . ولكن كل الصور التى تنبثق فى مخيلتك ستكون تنويعات على أصل هو أنا. حتى الضوء الوامض ، والصوت المتبدد ، بل والصمت الممتد هو أنا . سأكون ماثلة أمامك حتى المنتهى ،فهل تصبر ؟ سأعطيك مسكنات ، تستطيع بها أن تقاوم وتمضى . وبغيرى لن توجد ، وبغير مسكناتى لن تقوى . ستريد منى على الدوام قدرا من التوجيه وسأمسك دفتك . سأكون بوصلتك . إذا اشتدت العواصف وغرقنا ، فسنغرق معا . ومع سكون العاصفة سأطفو ، فأنا لاوزن لى ،وستطفو معى . سأنتشل حطامك . وأجرك إلى خليج هادىء،حيث أرمم ماتصدع من كيانك . ثم نمضى من جديد فى الأجواء الصافية. أنت القارب ، وأنا الهواء الذى ينفخ فى شراعك ، ويميل به .

سوف أنتزعك من براثن الأعشاب والطحالب إذا غصت وتعثرت ، وسأحتضنك ، فأنا عروس البحر إذا كان هناك بحر . وأنا نجم إذا كان هناك سماء ، وأنا الموجة إذا كنت أنت الصخر . أنا وانت على الدوام علاقة التحام ، وإذا كان ثمة فراق فلكى نلتقى من جديد . هذا هو المعنى الوحيد للفراق. يمكنك أن تجعل ذلك أساسا وبوعى كامل تشيد عليه حياتك .

لن تحمل كيسا أو مزودا ، إذا ماخرجت إلى طريقك ، ولن تعد كلماتك مقدما . لا تكترث بمن ستلقى ، وبما ستقول لهم . فإن أعمالهم ستكشف عنهم . وستكون كلماتك وايماءاتك بنت لحظتها . لن تخاطب الناس بألقاب ،ولا تعنى بأن تعرف أسماءهم . ستلقى سنارتك ، وستخرج فى كل لحظة السمكة المناسبة . لاتراجع نفسك ،ولاتأس على مافاتك . لاتعد إلى ماقلت ،ولاتكبح جماح تصرفاتك . كن على سجيتك ، فأنا سجيتك ، وستكون لى مطواعا . قل فحسب « لتكن مشيئتك » ولن أنجيك من الاشرار فحسب ،بل لن أدخلك فى تجارب لاتقوى عليها أيضا ، فأنا أعرف قدراتك ، ولن أجعلك تتحطم على صخور أصلب مما تحتمله عزيمتك ،وهل من هو أكثر ترفقا بك منى ؟ لن تطلب منى خبزا فالقمك حجرا ، لن أطلب منك ذبيحة . سأطلب لك رحمة . وإذا نسيت شيئا ، أو ضاعت منك فرصة ، فلا تبتئس . فلذلك أسرع فى المضى بك إلى المنتهى . عجل بانجاز نهارك ، ففى سرعة

الانجاز حفاظ على تلاحمنا ، فأنا وأنت إيقاع ، وكلما أسرع الايقاع علت نغماتك ، ودنت من السماوات . على سحابة ستراني حملتك ، ومضيت بك ، فمملكتك ومملكتي ليستا من هذا العالم .

لك على أي حال أن تتباطأ ، إذا قدرت أن قدراتك أوشكت على الانطفاء ؛ فلابد أن تظل شمعتك مضيئة ، والا تخبطنا في الظلمات ، فمهمتنا أن نمضي نشق هذا العالم ونحن ننشر للآخرين من حولنا الضياء ، فربما ساروا في إثرنا وخلصوا ، وإن كان من لم يعط ليس له . ستشعر بالرضاء إذا ما أنجزت العمل ، لكن لاتتوقف لتفكر فيما أنجزت ، قد تصل عندئذ إلى ماليس قابلا للتصديق . بينما عليك أن تؤمن فحسب ؛ فالايمان أسمى من التصديق ؛ والمستحيل على الدوام بحاجة إلى الإيمان وليس إلى التصديق . ستزداد أفكارك وضوحا بي ، وسأنعكس في وجدانك بسرعة ، فأنت مرآتي ، وصدق المرآة في هذه الخصوصية . سأحملك على الاندفاع القسري ، ولن أجعلك تترنح ، وسأمنحك من التصميم مايجعلك تقف شامخا في تواضع .

لن أسألك أن تلتزم تماما بكل ما أهسهس في أعماقك به ، ولكنك بالتفكير الجدي ، ستقول لايصح إلا الصحيح ، وعندئذ ستعود إلى ، ويكون ماتقوله هو قولي . فمشيئتنا — وقد صرت منضبطا — أضحت واحدة . ولاتترك أحدا يجادلك أو يبث فيك

الشك أو يزلزل بك اليقين . أنا يقينك . اليس كذلك ؟ وقد دفعت مهرى غاليا وارتضيتنى . اليس كذلك ؟ فهل تتخلى عنى ، بعد خمسة عشر عاما أو ستين عاما ؟ ستلفظ أنفاسك لتستر د مادفعت . ولن تفقد مليما واحدا ، إن لم يز د ما ستأخذ عما دفعت . ستحصل على مزيد من التفصيلات ،ولكن لن تكون هذه التفصيلات وقائع ، أو حواشى تاريخية ، أو عناوين صحفية ،بل حقائق . لن تكون قشورا بل جواهر ، فإن ماستحصل عليه سيكون كنوزا حيث لا ينخر سوس ، ولايزحف دود . هناك لاتتبدل الاشياء بمرور الزمن .

لن أرثيك إذا ما جاء اليك . لن تحتاج للرثاء . ستكون قد عبرت معى النهار بهموم قليلة ومسرات كثيرة . شىء واحد لن يكون من حقك : أن تسترجع الماضى . وفى ذلك مايقيك ويحافظ على . وفى النهاية ، مادمت قد دفعت مهرى فتستحق أهدافى ، وسأتجلى بينما تضمحل أنت ، وباختيارك تلوى . ستنزوى فى الركن ، وأتقلد أنا مكان الصدارة ، ولن يكون فى ذلك مانشكو منه ، فقد جئت من أجلى ، وليس من أجلك جئت . من غيرك لم أكن أعرف كيف سأنمو ، ولكن مادمت قدنموت وصرت شجرة باسقة وارفة الظل ، فستكون أنت الجذر ، ولن تبين على ظهر الأرض . وما أحب الزهرة على الأغصان قدر ما أحبها الجذر الذى لم يرها رؤية العين . أنت خشبة المسرح ، وأنا المغنية الاولى.

وهل يذكر المتفرجون خشبة المسرح ، أو بها يكترثون ، على الرغم من دبيب الممثلين عليها باقدامهم ؟ وهل يذكر الناس الحجر الأصم بعد أن ينحته الفنان الموهوب بأصابعه ؟

لن يهبط الخلاص من كلامى اليك ، بل من ذاتك سينطلق إلى . والقدرة على الخلاص هبة . لازال عليك أن تثبت لى أنك منحت هذه الهبة التى لن آتى بها اليك . هناك التنين ، عليك أن تنازله ، وتنقلنى ، مثلما أنقذ القديس الأميرة وحملها على جواده وانطلق بها . لكننى سأمنحك القوة ، وستجهز على التنين . وقبل أن يلفظ نفسه الأخير سأكون قد نفزت إلى أحضانك وجلست على على ظهر جوادك . وستمضى بى حيثما تريد . وأنا أعرف إلى أين ستحملنى . لكنى بذلك لن أخبرك ، فكل شىء أعد سلفا ، وكل شىء مهما أحاطه الغموض مقدر ومكتوب ، وعلى سنن منضبطة وقوانين صارمة يتحرك ويدور . والينابيع تنبثق ويتدفق منها الماء لحظة أن يضرب المعول على فوهتها من يد واعية . أنا الوحى ، وأنت اليد التى تمسك بالمعول ، وستفجر من الصخر الينابيع . .

إن عدم معرفتك ماذا ستفعل أو تقول لايعنى أنك بلغت طريقا مسدودا ، بل يعنى أنك بحاجة إلى ، وسأهديك أنا إلى الطريق الذى تلوى لجام جوادك نحوه ، وتتجه اليه . . الأمر يحتاج إلى تضحية فحسب . إدفع أذن المهر وليكن غاليا . وليكن من

قطرات دمك وساعات عمرك وراحتك . وبعد ذلك ليس عليك إلا أن تغمض عينيك، وتستحضرنى أمامك . ليس عليك إلا ان تفكر فى ، أمينا مع نفسك ، وساكسو جسدك الهزيل العارى بأفخر الثياب فتبدو وسيما لائقا . هل تفكر زنابق الحقل فى زينتها ؟ إذن إجلس وفكر ، بلا خوف ، بلا عجلة ، بلا أمل . وستجدنى قد جئت اليك ، وتمثلت فى خاطرك ، وقفزت أمامك ، وأومأت اليك أن تتبعنى ، وعندئذ حذار ألا تتبعنى ،فستكون إلى حتفك قد ترديت. سيكون على أن أبحث عن غيرك ، وسيضيع عليك المهر الذى دفعته . ليس بلازم أن تسارع إلى إقتفاء أثرى، بل يكفى أن تبعد عن خاطرك ألا تتبعنى . لست بحاجة أن أعود إلى أن أنبهك إلى مافيه خيرك ومافيه ضررك . وعليك ألا تتوقف مادمت قد بدأت مهما كانت المغريات المثبطة كثيرة وقوية ،فسوف تكون بذلك قد أضعت الايقاع ، فتتعثر خطواتى وخطواتك ، وقد تردى فى حفرة عميقة. قد تتلبد الغيوم أمامنا، ويهطل المطر ، وتضحى الأرض زلقة وتتزلق . لست شيئا منفصلا عنك ، لكننى بقادرة أن أنفصل عنك ، وأن أقطع صلتى بك ، وألا أعود اليك مهما دعوتنى وتوسلت . وعندما تشارف النهاية لاتتعجلنى ، فعلى هناك أن أخلع نعلى ، وأن أتطهر من أدرانى ومنك ، وذلك قبل أن أستريح لأمضى فى الطريق،أبحث عن غيرك ، ربما بعزم أشد ، فالعود أبدى ، والحاجة إلى تحقيق الذات لاتفنى .

إنتظرناك طويلا

منتقم جبار أنت، أم ملاك وديع؟ انتظرناك أياما كثيرة ، بأمل ورجاء . كمخلص انتظرناك كي تنشلنا ، كي تطرد الظلمة عن أيامنا ،كي تنزع من قلوبنا الجدب ، والغشاوة عن عيوننا. أيها الطفل المقدس ،أيها الحمل البرىء، يامفترس الاشرار والظلمة، أيتها النار المباركة ، أيها التمساح ذا الذيل البتار والانياب الحادة ، يا أيها الضمير اليقظ والفكر المتوقد، ياأيتها التنهيدة الصاعدة من الأعماق، لم جئت الينا ؟ أجئت تجمع أم جئت تفرق ؟ ياصاحب الجبين المضيء مثل الماس ، نحن ننتظرك . بتواضع وانكسار ننتظرك . مترو بن

في العتمة . في الصمت تتخذ الأطياف شكلا. إربت على كواهلنا حتى نتعزى . إمسح بيدك على جباهنا حتى ننعم بالسلوى .

فرشوا لك الأرض ورودا ورياحين . دخلت من البوابة الشرقية . رحبوا بقدومك وهللوا . جروا لاستقبالك . أنت وحدك كنت تعرف انك على الشوك تمشي ، والى اكليل الشوك تسير .

باستسلام ،ووداعة، كنت تمضي الى المصير ، بمحض اختيارك . بخطاك الواثقة ، كنت تعلن أعداءك بمجيئك ، وبكل شجاعة وسماحة .

قلبت مناضدهم . القيت على الأرض بضائعهم ، وطوحت صكوكهم ونقودهم خارجا . هربوا من أمامك . راعتهم نظرتك الحالمة ، فالأحلام تخيف اليقظين لأنهم يجهلون فحواها، ويخافون إغماض العيون .

بأي سلطان تفعل ذلك ؟ اقتربت ساعتك . كنت تعرف ذلك. كنت تعرف انه حتى هو لن يشفق عليك ويعفيك . مامن سند لك وما من معين ، ومع ذلك لم تكن تخاف من الموتى ، ولا من الموت تهاب. ومضيت الى الجبل . ورأيت ملاك الخراب يمسك معوله ،

فلم يطرف جفناك. شددت قامتك، ووقفت فى وجه الهلاك شامخا .

الكلمات قرأتها ، وفى هدأة الليل أعدت قراءتها . ومضت المعانى تمزق حجب الظلمات ، وتبرق فى أعماقى . وصرت اهتف متى ستأتى الساعة . لاشىء من الخارج. كل شىء من الداخل . لاشىء من الخارج . كان على أن أعثر بنفسى على المعنى الجوهرى، المجهول المضمر ، الذى لايبدو وجوده للآخرين . نظرت فى انبحيرة . رأيت الحزن مرتسما على وجهى . كنت انتظر الخلاص . كنت انتظر المنتقم العادل . بعد النوم ، يأتى الأمل المبهم السخى . العنقاء من أشلائها ستهب متجددة. افتح قلبى على مصرعيه، وانتظر دخولك. لاتعرض عنى . ادخل إلى قلبى ، أيها الحبيب الغالى . لاتدعنى : لاتتخل عنى . لاتتركنى نهبا للضباع والذئاب ، بل تعال ، تعال لانتشالى من وهدتى ، واقالتى من عثرتى . إتخذنى قلما لك واكتب بى أقوالك . اتخذنى سفرا لك ،وخط على كلماتك. هب واصرخ فى «انهض،وبالكلمة انطق» لكن بالتعاستى ،هل أنا أهل للملك؟ هل عندى كلمة ، انا الأخرس الذى قطع لسانى، وشل نطقى، وبأعماقى نداء الحكمة يقول «عاقل من لزم الصمت» «حكيم من نكص عما ينتظره» ، ولكن ماذا افعل وبداخلى صوت شرس يزهق صوت الاستسلام والهزيمة ، صوت يفح فى أذنى أن أسعى

الى مالاأعرف عنه سوى انه مهول ومثير للرهبة ؟ وفى النهاية ، جاء الخلاص . فى الحلم جاء . استيقظ فى الأعماق ضميرى ، والتحم بروح الموجودات كلها ، بروح الوجود . اختفى من أمامى العالم الخارجى ، واغمضت عينى . أطبقت جفنى ، ورحت أتأمل بانبهار ، أتأمل الحقيقة

أنت وحدك كنت تعرف . كانت المرارة على شفتيك ، وفى كفيك كنت تحس الما ، لكن إصرارك كان حارقا متأججا ، فانفرجت ابتسامتك ، وديعة مسالمة ، ولمعت عيناك مثل سيف مشرع فى يد اعتزمت ان تشق طريقها ، ومتحديا قلت « انا أيضا لن أقول لكم » كنت تعرف انك تخطو الى حيث يحيط بك خدم سيقتلونك لينهبوا ملك ابيك ، وما كانو يدرون أنك حجر الزاوية ، الذى على رؤوسهم سيقع ، وتحت ثقل براءتك كانت حجج اتهامك قد اعدت ، ومحاكمتك عقدت حتى قبل أن تأتى ما يدينك . كانت الكراهية تبظ من المآقى الكالحة ، وانت بحماسك رحت تستثيرهم ، مدركا انك حكمت على نفسك وما عاد أمامك مخرج . تزاحم الناس ليتسلوا باهلاك برىء ، فهذه متعة ترتوى بها الاعماق الجبانة ، فما اسعد الجبناء ان يشهدوا شجاعا يتردى فى الهاوية ، وما اسعد الاكفان ان ترقد جثة جديدة

فى المقبرة . لكنك تجاوزت الحدود كلها ، وتعديت الأسوار والقيود كلها . ورحت تصب ضراوة قلبك الوديع على المزيفين والمزورين والكذبة . اعتقدوا انك لن تصمد، لن تقول لهم لا .. وباقترابك من الموت اضحت نظرتك اكثر شراسة ، وقد تنبأت لنفسك بما سيحدث . بيدك تجرعت كأسك ، وتجرعته حتى الثمالة .

أيها الجمال ، هل بالامكان الا تمتزج بالألم ، والا تخرج من صدور مكلومة وشفاه محترقة ؟

يا أيتها الروح الزائفة ، المتلفحة بكل أوهام المدينة ، تخدعين البعض بمظهرك المادى الباهر وبوفرة بهارجك ، فيتعلقون بالعالم ويؤثرون المنافع . يندفعون وراء الشهوات ، ياوهم العظمة الزائف ، يا فن حضارة متخثرة !

اتعس لحظاتى عندما أشعر انك تخليت عنى . فى قرارة نفسى اتوجه اليك ، لكنك لا تستجيب. تخليت عنى .

قد اشعر أن الآخرين تخلوا عني ، لكنى أظل شجاعا صامدا

متى بقيت مرتبطا بك، واثقا انك تقف فى صفى، لكن عندما أشعر انك قد خذلتنى ، فهذه اشق اللحظات بالنسبة لى .

فاذا ما تناقشت مع الآخرين فى مشكلة أو محنة ،وسمعت من يقول لى « كان هو فى عونك » ازددت بلبلة وخوفا ، لأن آخر طوق نجاة لى سحب من بين يدى . انى أغرق .

أراجع حياتى . أجد عن يقين أنك جئت لنصرتى فى أكثر من ليلة حالكة،ولكن الآن فى هذه اللحظة وفى هذه المحنة ، ومطلبى فيها جد مشروع واخلاقى ،لاتتدخل . لاأسمع بأعماقى صوتك يستجيب إلى ، وعندئذ يتزلزل يقينى . إن كل مابدا لى من قبل فى حياتى تدخلات منك لم يكن اذن سوى مصادفات.والمصادفة قد تتحقق،لكنها لاتبنى قانونا مؤكدا ، ولا توفر شفاء أو نفعا، مادامت قد لا تحدث. وهاهى لا تحدث .

احببتك — تعرفين لماذا — اعتقدت انك حقيقة بين الأكاذيب . كنت نجما وضاء فى الظلمة . كنت أملا فى بيداء بلا أمل .

وعندما اكتشفت — وكان اكتشافى متأخرا— انك مجرد أكذوبة سقط عنها الطلاء ، صرت بدورك ظلمة ، وسرابا فى بيداء .

عندما اكتشفت بفقدك جهامة الحياة ، لم أكرهك . لم استطع أن اكرهك . فقط كففت أن أحبك .

عندما اكتشفت انخداعي فيك ، خفت كل النساء . ماعدت بقادر ان أرتبط بغيرك . تعبت بك ، وخشيت أن يبلغ بي التعب إلى جوار غيرك منتهاه .

ستظلين رسما باهتا على جدار عرتة الرياح ، طلاين الأطلال ، وشما على جلد متهرىء ، صوتا فى إذنين يزحف اليهما الصمم ، صناج قنديل انطفأ من ذبالته اللهب .

أبحث عنك . أبحث عنك . أغمض عيني . أمد ذراعى . أتحسس بأناملي المتشنجة الخواء من حولي ، فلا أجلك ، يافردوسى المفقود ، ياأنيني ، ياحنيني ، ياعمرى الذى لن يعود .

إترك كل شيء واتبعني ، وأنا اكون لك نصيبا . اترك كل شيء تعطى كل شيء . تعال ، تجد الراحة والهدوء . لن يخيب ظننك. تعال . حيثما اقمت اقيم انا . لن يغيب عنك وجهي ، تعال . انى اخترتك لي عونا . صوتي يدعوك ، تعال . نظرت فى عينيك واحببتك . عرفت ما فى قلبك . تعال . ارضك العطشى للحب وللسلام تصرخ . تناديك . تعال .

أنا ملاذك الأخير . ستعيش بي ما لا يمكنك أن تعيشه من غيري ، وبفضلي لن تتخبط بين الاسوار ، لأني وحدي سأعلمك السر. سأهمس به في اذنك. اسمع مني « إنماهو موجود ليس كل الوجود . إن كل ما هو كائن ليس كل ما يمكن ان يكون . » إذن، ضع يدك في يدي ، ولنجعل المحتمل حقيقة ، فأنا بي ميل أن أصبح حقيقة . وليس للملك من شرط ، سوى أن تقول « أجل » آمن بي فقط ، وقل « أجل » .

قم . انهض . لا تستسلم للواقع ، للمقدر والمكتوب. لاتستعذب الروتين والتعاسة . انفض عنك تصلب الشرايين وركود القلب . لاتؤثر السكينة . انبذ الحلول الوسط ، ولا تركن للكسل . حذاري أن تصرفك عن الثرثرة الفارغة والاستعراضات الثقافية .

كلا ، كلا ، لست منهم . لاتكن منهم . واذهب ابحث عن نفسك ، خارج القوانين المفروضة . تعال إلي . أمواج البحر تغسل كل شيء ،كل الهموم والاحزان والأفراح ، وتجعلها بيضاء مثل أمواجه . العاصفة اشتدت . الأنواء علت . السفين يغرق . إلى قوارب النجاة أيها الرجال ، واتركوا النساء والأطفال تغرق . يمكنكم ان تجلبوا غيرهم . إنهن يجلسن عند الشبابيك ينتظرنكم

ليأخذ نكم عندالعودةبالأحضان، إلى المضاجع . ثم تبدأعمليات الولادة . لاتخشوا شيئا . جملوا قلوبكم فحسب . واذا غرقتم ومتم سينحن عليكم قليلا ، ثم ينصرفن الى غيركم ، ويلدن . إنه مهرجان كبير . سرك حافل بالألاعيب والحركات . ها هو الفيل ينحنى للجمهور، ويرفع خرطومه الطويل يحيي . والمراكب الحديدة فى الميناء على أهبةالرحيل . بعضهاللنزهات ، وبعضهاللتجارة ، وبعضها للمغامرات والغرق .

انها ليست دموع عقل أو عاطفة أو ضمير تلك التى تذرفها. أنها بكاء جسد، عليك ان تقتله حتى تظفر بهدوء البال ، وتخلو إلى ماهو إنسانى حقا . فهل أنت بقادر على ذلك؟ هل أنت راض أن تفعل ذلك. فترقى الدرجات صاعدا ، صارما مع نفسك، بخطوات غير مزعزعة ؟ أم أنك أرضى ، ترابى ، يبكى فيك الطين فيلوثك ، ولا تستطيع أن تشكل منه وعاء لمتطلبات ضميرك أو روحك أو حتى عقلك المضطرب ؟

انهضى أيتها اروح العظيمة ، انفخى فى الأحداث من أنفاسك،

وعلى صورتك المتميزة جسمها ، ومن اللاشكل اخلق شكلا ، ومن الهلام اصنعي كائنا محدوداً .

الريح بالخارج تتخبط مولولة فى الخلاء ، كروح ضال فى الظلمات . الوقت مساء ، جلست أمى الى مقعدها تقرأ . كانت ممسكة بالكتاب الضخم الذى حملته بين يديها منذ سنين ، لاشئ تغير فى داخل هذا الكتاب . ، الكلمات هى الكلمات لكن الغلاف دب البلى فى اليافه . وكذلك اليدان اللتان تمسكان بالكتاب غلتها التجاعيد . والعينان اللتان تتابعان السطور غطاهما منظار احتل مكانه على الخدين المتغضنين . كانت أمى تقرأ الكتاب كشأنها كل مساء .

البرد يقرص الأبدان ، والسنين تدور وتدور ، وابنى الصغير يكبر ، وانا أولى صوب الطريق الذى سبق لأمى أن قطعته .

الدقي ٢٨ مارس ١٩٧٨

المحتوى

« منولوج داخلى طويل »

اعمال اخرى للمؤلف

المرآة والمصباح	رواية	٦٦– ١٩٦٧	الانجاو المصرية
قضية الشلويش صقر	مجموعة قصصية	١٩٧١	الانجلو المصرية
حكايات الحب اليومية	مجموعة قصصية	١٩٧٦	روايات الهلال
لحظة لقاء	مجموعة قصصية	١٩٧٦	هيئة الكتاب
الاغراء الأخير	رواية	١٩٧٨	دار المعارف
نساء فى المحاكم	قصص ولوحات	١٩٨٠	دار المعارف

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٣٤٨/١٩٨١

ISBN ٩٧٧ ٧٣٤٥ ٤٩ ٦

مطابع الهيئة المصرية العامة

٥٥ قرشاً